الفصل الثاني
العلاقات السياسية بين بلاد المغرب
ودولة الكانم والبرنو

1 – الأوضاع السياسية في بلاد المغرب من القرن (7 – 10 هـ / 13 – 16 م .

2 – أثر موقع الكانم والبرنو في تطوير علاقاتها مع بلاد المغرب .

3 – دور العناصر المغربية في الحياة السياسية في الكانم والبرنو

4 – تأثر النظام الإدارى في الكانم والبرنو ببلاد المغرب .

5 – السفارات والهدايا المتبادلة .

6 – العلاقات بين بلاد المغرب ودولة الكانم في عهد أدريس الوما .

أ – الأوضاع السياسية في بلاد المغرب (7 – 10 هـ / 13 – 16 م)

لاشك أن العلاقات السياسية بين الدول ترتبط إلى حد كبير بالاستقرار السياسي في هذه الدول ففترات الحروب واختلال الأمن سينعكس بالتأكيد على علاقات الدول الخارجية بمعنى أن الأوضاع الداخلية في كل دولة تؤثر سلباً وإيجاباً على علاقات الدول الخارجية ، من هنا رأينا في بداية الفصل الذي يتناول العلاقات السياسية بين مملكة الكانم والبرنو وبلاد المغرب أن نلقى نظرة على الأوضاع السياسية في بلاد المغرب خلال القرون الثلاثة التي يشملها البحث .

لقد نجحت دولة الموحدين في توحيد المنطقة وقضت على الاضطرابات التي أعقبت سقوط دولة المرابطين ، كما استطاع المنصور أن يهزم الأسبان بالأندلس في معركة الأرك سنة (591 هـ / 1194 م)[1] التي أجل بها خروج المسلمين من الأندلس لبعض الوقت ، إلا أنه مع بداية القرن السابع الهجري بدأت عوامل الضعف تسرى في جسم هذه الدولة خاصة بعد هزيمة الموحدين في الأندلس في معركة العقاب(609 هـ / 1212 م)[2] ، ويعد عبدالواحد بن يوسف (ت 621 هـ / 1224 م) أول الخلفاء الضعاف في دولة الموحدين ، حيث كثرت الفتن والاضطرابات وظهر التنافس بين أبناء البيت الحاكم وقد بدأ هذا التنافس بمقتل

---

[1]- معركة الأرك – وقعت في الأندلس سنة 591 هـ / 1194 م بين جيش الموحدين بقيادة ابى يوسف يعقوب والجيش الأسباني بقيادة الفونسو الثامن ، وقد انتهت هذه المعركة بانتصار كبير للموحدين وقد استولوا بعدها على بعض المدن الأندلسية التي كانت تحت نفوذ الفونسو .ابن الأثير، الكامل في التاريخ–بيروت –دار للطباعة والنشر –1982م–ج12–ص115 ،أنظر أيضاً عبدالواحد المراكشي –المعجب في تلخيص أخبار المغرب –بيروت–دار الكتب العلمية–1998م–ص201

[2]– معركة العقاب / وقعت سنة 609 هـ / 1212 م في الأندلس بين جيش الموحدين بقيادة الناصر الموحدى وجيش الأسبان بقيادة الفونسو الثامن وقد انتهت هذه المعركة بهزيمة الموحدين وما ترتب عليه من اتساع النفوذ الأسباني في الأندلس ، أما الناصر فقد رجع بعد هذه الهزيمة إلى المغرب وأحتجب بقصره في مراكش حتى توفي سنة 610 هـ / 1213 م ، وكانت هذه الهزيمة أحد أسباب سقوط دولة الموحدين . أبو العباس أحمد السلاوى الناصري – الاستقصاء لإخبار المغرب الأقصى – الدار البيضاء – دار الكتاب – 1955 جـ 2 – ص 224 .

عبدالواحد ونهب قصره [1] ، وأخيراً سقطت دولة الموحدين بـــدخول المـــرينيين مدينة مراكش سنة 668 هـــ / 1269 م)[2]

بإنتهاء دولة الموحدين انتهى عصر الدولة الموحدة التي حكمت المغرب وظهرت مكانها ثلاث دول تقاسمت السيادة على بلاد المغرب ودخلت في نزاع يكاد أن يكون مستمراً فيما بينها وهى دولة بنى مرين بالمغرب الأقصى ودولة بني عبدالواد بالمغرب الأوسط والدولة الحفصية بالمغرب الأدنى ، وسنحاول فيما يلى إعطاء فكرة مختصرة عن كل دولة من هذه الدول على إعتبار أنها عاصرت دولة الكانم والبرنو خلال القرون الأربعة التي تمثل الإطار الزمنى لهذا البحث أى من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجرى/ الثالث عشرإلى السادس عشر الميلادى .

دولة بنى مرين بالمغرب الأقصى (668 – 906 هـــ / 1269 – 1500 م) :

ينتمى المرينيون إلى قبيلة زناته البربرية [3] ، وكان موطنهم الأصلى أقليم الزاب بالمغرب الأوسط [4] حيث كانوا (ينتقلون في تلك القفار والصحارى لا يدخلون تحت حكم سلطان) [5] .

ولم يكن المرينيون بعيدين عن الأحداث السياسية في ذلك الوقت حيث اشتركوا في معركة الأرك، وأبلوا فيها بلاء حسنا وأصيب في هذه المعركة شيخهم

---

[1] –الناصري –المصدر السابق– ج2–ص 230– انظر أيضاً السيد عبـــدالعزيز ســـالم – المغـــرب الكبير (العصر الإسلامي) بيروت – دار النهضة – 1981 م – جـــ 2 – ص 828 .

[2] – المراكشي –المصدر السابق –ص 241 –انظر أيضاً مراجع عقيلة الغنـــاى – ســـقوط دولـــة الموحدين – بنغازي – جامعة قار يونس – 1975 م – ص 275 .

[3] – زناته : إحدى قبائل البربر وتنتشر بطونها في أغلب بلاد المغرب وقد أعتادوا ســـكن الخيـــام وأعتمدوا على الإبل والخيل ، وإلى هذه القبيلة تنتمى قبيلة جراوة التي حاربت جيش الفتح الإســـلامى بقيادة الكاهنة ، وبعد نهاية الفتح دخلت قبيلة زناته الإسلام وكانوا ينقسمون إلى عدة فروع منها : بنى يفرن وجراوة ومغراوة ، كذلك ارتبط اسم هذه القبيلة بالحروب التي خاضتها ضد بني سليم وهـــلال عند قدومهم إلى بلاد المغرب ابن خلدون المصدر السابق – جـــ 7 – ص 3، أنظر ايضا
Paul Casanova –Historie des Berberes–Paris–Librairie Orientaliste–1969– P45

[4] – ابن خلدون – المصدر السابق – جـــ 7 – ص 6 .

[5] – الناصرى – المصدر السابق – ج3 –ص 5 .

محيي بن أبى بكر بجرح مات منه بعد شهور[1] ، وتولى بعده إبنه عبدالحق وفي عهده انتقل بنو مرين إلى منطقة الريف واستغلوا ضعف دولة الموحدين فأخذوا يغيرون على القرى ، وفي سنة (603 هـ / 1206 م) وقع أول صدام بين بنى مرين والموحدين قرب فاس[2] وأنتصر المرينيون في هذا الصدام ،ثم انتصروا على الموحدين مرة أخرى سنة (613 هـ / 1216 م)[3] ، واستمر الصراع بين الطرفين وأخذت الكفة تميل لصالح هذه القوة الفتية التي بدأ واضحاً أنها سترث دولة الموحدين في المغرب الأقصى حيث استولوا على مكناسة سنة 643 هـ / 1245 م[4] ، كما دخلوا فاس سنة 646 هـ / 1248 م ثم أكد المرينييون سلطانهم على جنوب المغرب الأقصى بإستيلائهم على سجلماسة سنة 653 هـ/ 1255 م[5] .

واخيراً نجح المرينيون في الإستيلاء على مراكش سنة 668 هـ/ 1269 م[6] وهى السنة التي انتهى فيها حكم الموحدين وبدأ عهد بنى مرين بالمغرب الأقصى بتولى أبو يوسف يعقوب بن عبدالحق (656 – 685 هـ / 1258–1286م) [7] ،

---

(1) – ابن خلدون – المصدر السابق – ج7 – ص 198 – انظر ايضاً حسين مؤنس – تاريخ المغرب وحضارته – بيروت – دار العصر الحديث – 1992 م . جـ 3 – ص 14 .

(2) – فاس : مدينة مشهورة في المغرب الأقصى أسسها أدريس بن أدريس سنة 192 هـ وأتخذها عاصمة لدولة الأدارسة وتنقسم المدينة إلى قسمين هما : عدوة الأندلسيين وعدوة القرويين ، واشتهرت هذه المدينة بوفرة المياه وخصوبة التربة . الحموى – المصدر السابق – جـ 4 – ص 230

(3) – مراجع عقيلة الغناى – المرجع السابق – ص 267 .

(4) – مكناسه : مدينة في المغرب بينها وبين مراكش أربعة عشر مرحلة نحو المشرق ومنها إلى فاس مرحلة واحدة وقد أختطها يوسف بن تاشفين ، وأكثر أشجارها الزيتون . الحموى – المصدر السابق – جـ 5 – ص 181

(5) – ابن خلدون – المصدر السابق – ج 7 – ص 208– الناصري – المصدر السابق–ج3– ص18 ، انظر ايضاً : حسين مؤنس – تاريخ المغرب وحضارته– جـ 3 – ص 19 .

(6) – المراكشى – المصدر السابق–ص214

(7) – ابو يوسف يعقوب / هو أحد حكام الدولة المرينية تولى الحكم بعد وفاة أخيه ابوبكر عبد الحق ، وقد تمكن من توطيد أركان الدولة والقضاء على بقية مقاومة الموحدين حيث أنتصر على ابى = =

ويعد ابو يوسف يعقوب من أشهر حكام بنى مرين حيث لعب دورا جهادياً في الأندلس من أشهر أعماله بناء مدينة فاس الجديدة سنة (675 هـ / 1276 م) التي أصبحت عاصمة المرينيين[1] ، كذلك اشتهر من حكام بنى مرين أبو يعقوب يوسف (685 – 706 هـ / 1286 – 1306 م) الذي نجح في القضاء على الفتنة الداخلية التي كان سببها تنافس أفراد الأسرة الحاكمة ، وفي عهد ابى سعيد عثمان بن يعقوب تمكن المرينيون من الاستيلاء على المغرب الأوسط سنة (714 هـ / 1314 م) ،كما تمكنوا في عهد ابنه أبى الحسن على بن عثمان من الإستيلاء على تونس سنة (748 هـ / 1347 م) وأتصل ملك المرينيين من برقة إلى المحيط الأطلسى[2] مما جعل المرينيين يوحدون بلاد المغرب تحت سلطانهم إلا أن هذا لم يستمر طويلاً حيث بدأ الضعف يدب في جسم هذه الدولة منذ عهد أبى عثمان سنة (749 – 759 هـ / 1348 – 1358 م) الذي كثرت في عهده الثورات وبرز التنافس بين أبناء الأسرة الحاكمة فانحلت عرى الوحدة المغربية وعاد نفوذ الحفصيين إلى المغرب الأدنى ، ثم فقد المرينيون سلطتهم على المغرب الأوسط ، وظهر خطر خارجى اسهم في إضعاف سلطة المرينيين وهو الخطر البرتغالى الذي هدد السواحل المغربية وأحتل بعض المدن مثل سبته سنة (818 هـ / 1415 م) ، وطنجه (869 هـ / 1464 م) .

وبعد أن وصلت الدولة المرينية إلى درجة كبيرة من الضعف تولى الأمر الوطاسيون وهم فرع من بنى مرين ، وقد بدأ ظهورهم في عهد السلطان عبدالحق بن ابى سعيد،ففي ايامه (ضعف امر بني مرين جداً وتداعى الى الانحلال

= = دبوس أخر حكام الموحدين وقتله سنة 668 هـ / 1269 م وسيطر بعدها على جميع ممتلكات الموحدين بالمغرب الأقصى وأستمر في الحكم حتى سنة 685 هـ / 1286 م .انظر ابن خلـدون – المصدر السابق–ج 7 – ص215

[1] – الناصري – المصدر السابق– ج3– ص44 ، انظر ايضاً–ابن خلدون– المصدر السابق–ج 7 – ص229

[2] –ابن خلدون–المصدرالسابق–ج7–ص320– انظر ايضاً– الناصري–المصدرالسابق ج3– ص 154

وكان التصرف للوزراء والحجاب)[1]،وقد استمر حكم الفرع الواطسى من بنى مرين حوالى 80 سنة876ــ 956 هــ /1471– 1549 م وشهدت هذه الفترة مزيداً من الصراعات الداخلية بين الواطسيين وأبناء عمومتهم المرينيين ، كما شهدت مزيداً من الضغط الأسبانى والبرتغالى من الشمال[2] ، وفي هذه الأثناء بدأت تظهر قوة جديدة تنافس المرينيين في السيطرة على بلاد المغرب وهى قوة السعديين[3] الذين نجحوا بعد سلسلة من المعارك في دخول مدينة فاس وإنهاء حكم بنى مرين والوطاسيين سنة { 956 هــ / 1549 م }[4].

ولعل أبرز الأحداث في بداية عهد السعديين " النصف الثاني من القرن العاشر الهجرى " السادس عشر الميلادى" .معركة وادى المخازن { 986 هــ / 1578 م }[5] التي انتصر فيها السعديون على البرتغاليين إنتصاراً

---

[1] – الناصري– المصدر السابق–ج4–ص 95 –انظر ايضاً –حسين مؤنس – تاريخ المغرب وحضارته جـ 3 – ص 79

[2] – الناصري– المصدر السابق–ج4–ص139– أنظر أيضاً– السيد عبدالعزيز سالم – المغرب الكبير– جـ 2 – ص 872

[3] – السعديون : ينتمون إلى جماعة العرب المهاجرين الذين أستقروا على وادى درعة جنوب المغرب الأقصى ، ويرجع نسبهم إلى محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن على بن ابى طالب . على رآى القشتالى والناصرى لذلك يسمون بالأشراف السعديين ، وقد أستغل السعديون ضعف دولة بنى مرين وبدأوا يوسعون نفوذهم على حسابها حتى دخلوا مدينة فاس سنة { 956 هــ / 1549 م } أنظر عبدالعزيزالقشتالى – مناهل الصفا في أخبار موالينا الشرفاء – تحقيق : عبدالكريم كريم – الرباط – وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – 1972 م . جـ 1 – ص 61 ، الناصرى – المصدر السابق – ج7–ص 3 .

[4] – الناصري– المصدر السابق–ج7–ص34–انظر ايضاً: إبراهيم حركات – المغرب عبر التاريخ – الدار البيضاء – دار الرشاد – 1984 م . ص 248

[5] – معركة وادى المخازن : وقعت بالمغرب الأقصى سنة 986 هــ / 1578 م ، بين السعديين بقيادة عبدالملك بن محمد السعدى وبين البرتغاليين بقيادة سباستيان الذي هاجم المغرب الأقصى ومعه السلطان السعدى السابق المتوكل الذي أستنجد بالبرتغاليين ضد أخيه عبدالملك وأسفرت هذه المعركة عن انتصار كاسح للسعديين وقتل الآف من البرتغاليين من بينهم سبا ستيان نفسه وغنم المغاربة قطع السلاح التي كانت مع الحملة وقد توفي عبدالملك أثناء المعركة لإنه كان مريضاً ،= = = =

حاسماً زاد من مكانتهم في نفوس اتباعهم [1] ، أما في إطار علاقات المغرب ببلاد السودان الغربى في هذه الفترة فيبرز حدث الغزو المغربى لدولة سنغاى وإسقاط هذه الدولة بعد معركة تونديبي سنة 999 هـ / 1590 م[2]، وقد حرص السعديون على إقامة علاقات ودية مع مايات الكانم والبرنو نتيجة للظروف الدولية في ذلك الوقت وسنتحدث عن هذه العلاقات المميزة بشئ من التفصيل في المبحث الأخير من هذا الفصل .

2 – دولة بنى عبدالواد بالمغرب الأوسط{633–962 هـ/1235– 1554م}

ينتمى بنو عبدالواد أو بنو زيان إلى قبيلة زناته البربرية فهم يشتركون في النسب مع بنى مرين الذين أقاموا دولة في المغرب الأقصى ، وقد استقر بنو عبدالواد في منطقة المغرب الأوسط .وكانوا من أتباع الموحدين إبان فترة قوتهم ، حيث عين الموحدون يغمراس بن زيان عاملاً على تلمسان سنة 624 هـ / 1226 م[3] ،وبعد سقوط دولة الموحدين استقل يغمراس بالمغرب الأوسط وأسس دولة بنى عبدالواد التي استمرت حوالى 300 سنة وكانت تلمسان [4] هى عاصمة

وتسمى هذه المعركة في بعض المصادر الأوربية الملوك الثلاثة أنظر " الناصرى – المصدر السابق – ج4–ص 69 ، حسين مؤنس – تاريخ المغرب وحضارته – جـ 3 – ص 178

[1] – القشتالي –المصدر السابق– ص139– الناصري– المصدر السابق–ج4–ص 133 –أنظر أيضاً : محمد الغربى – بداية الحكم المغربى في السودان الغربى – الكويت – مؤسسة الخليج للطباعة والنشر 1982 م – ص 98 .

[2] – تونديبى / وقعت هذه المعركة سنة 999 هـ / 1590 م ، بين جيش المنصورالسعدى وجيش سنغاى وأسفرت عن إنتصار الجيش السعدى وإنهاء مملكة سنغاى لمزيد من التفاصيل عن الصراع بين السعديين ومملكة سنغاى أنظر : الناصرى – المصدر السابق – ص 133 ، السعدى – المصدر السابق – ص 140 – الغربى – المرجع السابق – ص 254

[3] – السيد عبدالعزيز سالم – المغرب الكبير – جـ 2 – ص 873 .

[4] - تلمسان : هى قاعدة المغرب الأوسط ، أسمها مركب بن شقين : تلم وتعنى البر وسانه تعنى البحر ، وقد أسسها بنو يفرن ، وكانت هذه المدينة موجودة أبان الفتح الإسلامى ، حيث وصلها أبو المهاجر دينار وسميت به عيون ماء في المدينة ، وتشتهر هذه المدينة بخيراتها الزراعية بالإضافة إلى إشتغال أهلها بالتجارة وبعد قيام دولة بن عبدالواد بالمغرب الأوسط جعلوها عاصمة لهم ، = =

الدولة ، حيث لعبت هذه المدينة دوراً هاماً في الحفاظ على استمرار دولة بنى عبد الواد بفضل حصانة موقعها وتوفر المقومات الإقتصادية لبقائها فقد كانت تحيط بها أراضى زراعية خصبة كما كانت مدينة تجارية هامة بفضل موقعها المتوسط [1].

لقد كان من أبرز حكام هذه الدولة عثمان بن يغمراس { 681 – 703 هـ / 1282 – 1303 م } الذي سار على خطي والده في الدفاع عن الدولة أمام خطر الحفصيين من الشرق والمرينيين من جهة الغرب ،وقد مات عثمان أثناء حصار المرينيين لمدينة تلمسان سنة 703 هـ / 1303 م[2] ، وكذلك أبو حمو موسى الثاني الذي تولى الحكم سنة 760 هـ / 1358 م وحاول القضاء على الفتن القبلية التي كادت أن تعصف بالدولة وشهدت تلمسان في عهده نهضة عمرانية وعلمية بفضل إهتمامه بها ، ثم أستمر حكام بنى عبدالواد يحاولون الحفاظ على وجود دولتهم وسط محاولات الحفصيين والمرينيين في الاستيلاء عليها حتى ظهر خطر خارجى هدد المغرب الأوسط وهو خطر الأسبان الذين احتلوا بجاية سنة 910 هـ / 1504 م ، كما استولوا على وهران سنة 914 هـ / 1508 م[3] وعاشت مدينة الجزائر تحت تهديد المدافع الأسبانية حتى اضطر أهلها للإستنجاد بالعثمانيين الذين سارعوا في الإستيلاء عليها لتنتهى دولة بنى عبدالواد ويبدأ فصل جديد من تاريخ هذه البلاد .

3 – الدولة الحفصية بالمغرب الأدنى { 626 – 981 هـ /1228– 1573 م }

ينتسب الحفصيون إلى الشيخ أبى حفص يحى بن عمر الهنتاتى ، ويعود أصله إلى قبائل مصمودة البربرية ، وكان لهذا الشيخ مكانة مرموقة في

==ودخلت في بعض الأحيان في نفوذ المرينيين أنظر : ابن خلدون – المصدر السابق – جـ 7 – ص 90 .

[1] - ابن خلدون – المصدر السابق – ج 7 – ص 90– أنظر أيضاً حسين مؤنس – تاريخ المغرب وحضارته – ج 3 –ص 140 .

[2] – ابن خلدون – المصدر السابق – ج 7 – ص 112 .

[3] – السيد عبدالعزيز سالم – المغرب الكبير ج 2 –ص 875 .

بلاط الموحدين[1] ، وقد تمكن أحد احفاده وهو أبو زكريا يحى الحفصى سنة 626 – 647 هـ / 1228 – 1249 م من الإستقلال ببلاد المغرب الأدنى بعد ضعف دولة الموحدين ، وقد استمرت هذه الدولة تحكم المغرب الأدنى بالإضافة إلى طرابلس وأجزاء من المغرب الأوسط حوالى ثلاثة قرون تباينت قوةً وضعفاً بتباين شخصيات حكامها وقد وصف ابن خلدون أهمية الدعوة الحفصية وصدى ظهورها بقوله { وظهور الدعوة الحفصية بأفريقيا وتأميل أهل الآفاق فيها وإمتداد الأيدى إليها بالطاعة } [2] .

إن من أبرز حكام الحفصيين بالإضافة إلى أبى زكريا مؤسس الدولة هو المستنصر 647 – 675 هـ / 1249 – 1276 م الذي أتخذ لقب(أمير المؤمنيين) ووصلته البيعة من مكة المكرمة سنة 659 هـ / 1260 م، بل إن بنى مرين كانوا في بداية دولتهم يدعون إلى أبى زكريا الحفصى .

كذلك من اشهر سلاطينهم ابو العباس احمد772 – 796 هـ / 1370 – 1393 م الذي شهدت البلاد في عهده نهضة حضارية بعد فترة من الإضطرابات السياسية حيث وصفه إبن أبى دينار بأنه { شيد رسوم بنى حفص بعد إندراسها ، وأقام منار بنى حفص في الخلافة ودعم أساسها } [3] ، أما أبوفارس عزوز 796 – 837 هـ / 1393 – 1433 م فقد امتدت حدود الدولة الحفصية في عهده لتشمل مناطق من المغرب الأوسط[4] .

لقد دخلت الدولة الحفصية في صراع مع بنى عبدالواد في المغرب الأوسط وبنى مرين في المغرب القصى ، حيث قاد أبو زكريا سنة 639 هـ/1241م حملة عسكرية على المغرب الأوسط واستولى على تلمسان فأصبح المغرب الأوسط

---

[1] –ابن خلدون – المصدر السابق – ج6 – ص 327 –أنظر أيضاً :مراجع عقيلة الغناى – المرجع السابق – ص 276 .

[2] – ابن خلدون – المصدر السابق – جـ 6 – ص 358.

[3] – ابن ابي دينار –المصدر السابق – ص 174 .

[4] –المصدر السابق–ص17 أنظر أيضاً حسين مؤنس–تاريخ المغرب وحضارته– جـ 2 – ص 211

خاضعاً للسلطة الحفصية ، كما هادنه بنو مرين وخطبوا باسمه[1] إلا أن الأمر تغير بعد ذلك حيث تعرضت بلاد المغرب الأدنى إلى حملة قادها السلطان المرينى أبو الحسن حيث قتل السلطان الحفصى أبا حفص عمر سنة 748 هـ / 1347 م ،ودخل تونس في يوم وصفه ابن خلدون بأنه " يوماً لم يرى مثله فيما عقلناه" [2] وأصبحت بلاد المغرب الأدنى خاضعة للسلطة المرينية حتى سنة " 750 هـ / 1349 م " ، عندما عادت للسيطرة الحفصية على يد ابى العباس الحفصى " 750 – 755 هـ / 1349 – 1354 م " [3]ثم خضعت للسلطان المرينى ابو عثمان " 749 – 759 هـ / 1348 – 1357 م " حتى سنة " 761 هـ / 1359 م ". نخلص من هذا إلى أن الدولة الحفصية على الرغم من فترات الصدام مع دول المغرب الأوسط والأقصى إلا أنها شهدت فترات من الهدوء السياسي الذي مكن الحفصيين من إقامة حضارة مزدهرة تأثرت بالطابع الأندلسى نتيجة لنزوح أعداد من أهل الأندلس وإستقرارهم في تونس بسبب تردى الأحوال السياسية في الأندلس[4] ، إلا أن الدولة الحفصية بدأت تتجه إلى الإنحدار منذ أواخر القرن التاسع الهجرى " الخامس عشر الميلادى " للأسباب نفسها التي قضت على الدولة المرينية ودولة بنى عبدالواد والمتمثلة في الصراع حول الحكم بين أفراد الأسرة الحاكمة ، وضعف شخصيات الحكام بالإضافة إلى تمرد بعض القبائل الخاضعة للدولة[5] ، وأخيراً ظهرت القوة المؤهلة للسيطرة على المنطقة وحمايتها من الأطماع الأسبانية والبرتغالية ، وكانت هذه القوة هى قوة العثمانيين الذين بدأو يمدون نفوذهم على الشواطى الجنوبية للبحر المتوسط فأستولو على تونس سنة 981هـ/1573 م وأصبحت منطقة المغرب الأدنى ولاية عثمانية منذ ذلك التاريخ

---

(1) – الناصري –المصدر السابق–ج3– ص 28

(2) – ابن خلدون – المصدر السابق جـ 7 – ص 320

(3) – المصدر نفسه –ج7– ص 296

(4) – السيد عبدالعزيز سالم – المغرب الكبير جـ 2 – ص 877

(5) – حسين مؤنس – تاريخ المغرب وحضارته – جـ 1 – ص 282

أ. أثر أوضاع بلاد المغرب على العلاقات السياسية مع الكانم والبرنو :

لقد تعرفنا بشكل موجز على الدول التي ظهرت في منطقة المغرب على أثر سقوط دولة الموحدين خلال القرون الثلاثة التي تمثل الإطار الزمنى للبحث ورأينا أن الأوضاع الداخلية في هذه الدول كانت تتأرجح بين الإستقرار والإضطرابات السياسية ، ولا شك أن العلاقات بين هذه الدول ودولة الكانم والبرنو مرتبطة إلى حد كبير بفترات الإستقرار السياسي لهذه الدول ، وأول مايمكن إستنتاجه من دراسة الأوضاع السياسية لهذه الدول كثرة الحروب والمنافسات فيما بينها ، حيث رأينا السلاطين المرينيين يمدون نفوذهم إلى المغرب الأدنى ، كما رأينا سلاطين الدولة الحفصية يحاولون السيطرة على أجزاء المغرب الأوسط ، ولا شك أن هذه العلاقة المتوترة في أغلب الأحيان قد أثرت بشكل سلبى على علاقات هذه الدول الخارجية فدولة بنى عبدالواد مثلاً لم تجر أى إتصال سياسي مع الكانم والبرنو. لأن هذه الدولة منشغلة بشكل مستمر بصد الأطماع الحفصية من الشرق والمرينية من الغرب، كذلك لم تسمح هذه الظروف بوجود إتصالات سياسية بين حكام الكانم والبرنو وبلاد المغرب الأقصى إلا في عهد السعديين عندما وصلت البعثة التي أرسلها إدريس الوما سنة990 هـ/1582 م[1]، وربما يرجع سبب غياب هذه الإتصالات السياسية إلى إنهماك الحكام المرينيين في المشاكل الداخلية من جهة وصد الخطر الأسبانى من جهة أخرى،أما الدولة الحفصية فالملاحظ أنها احتلت مركز الصدارة في قوة علاقاتها مع دولة الكانم والبرنو حيث تعددت البعثات السياسية بين الطرفين. وترجع قوة هذه العلاقات إلى ثلاثة عوامل هي :

1- عامل جغرافي يتمثل في : -

إن بلاد الكانم والبرنو تعد من الناحية الجغرافية أمتدادا طبيعيا[2] لممتلكات الدولة الحفصية مما أوجد مصالح إقتصادية مشتركة حتمت على الطرفين إقامة علاقات

---

[1] - القشتالى - المصدر السابق - جـ 6 - ص 61

[2] - أنظر الخريطة - في الملحق رقم 13

سياسية متميزة[1] .

2 – عامل سياسى من حيث : –

إن الدولة الحفصية شهدت فترات من الإستقرار الذي سمح لها بالالتفات إلى مناطق جنوب الصحراء فمنطقة المغرب الأدنى كانت أقل تعرضاً للهجمات الأوربية التي ركزت على المغرب الأقصى والأوسط لأسباب تتعلق بقرب أسبانيا والبرتغال من تلك المناطق ومن المعروف أن هاتين الدولتين تحملان لواء الحرب الصليبية على المسلمين في شمال أفريقيا

3 – عامل تاريخى ويتمثل في : –

ان العلاقات بين بلاد المغرب الأدنى وبين مناطق شمال الصحراء ضاربة في القدم حيث كانت القوافل التجارية والجيوش تتحرك من تلك المنطقة بإتجاه بحيرة تشاد سواء في عهد دولة قرطاجة أو في العهد الرومانى[2] ، أما في العهد الإسلامى فنجد أن حملة عقبة بن نافع التي وصلت إلى أقليم كاوار قد انطلقت من سواحل المغرب الأدنى [3] ، لهذه الأسباب برزت العلاقات السياسية بصورة واضحة بين الحفصيين ومايات الكانم والبرنو بينما كانت محدودة مع بنى عبدالواد والمرينيين ، ولكن هذا لايعنى جمود بقية أنواع العلاقات فقد استمرت العلاقات الإقتصادية والثقافية والإجتماعية بين دولة الكانم والبرنو ودول المغرب على إعتبار أن هذه الأنماط من العلاقات لاتتأثر بالأوضاع السياسية السائدة بل ترتبط بأفراد ينتقلون للتجارة أو للعلم بين شمال الصحراء وجنوبها

---

[1] – لقد قام المرينيون علاقات متميزة مع دول مالى وسينغاى ووجدت بعثات سياسية بين الطـــرفين بحكم العامل الجغرافي أى أعتبار هاتين الدولتين إمتداد طبيعى لبلاد المغرب الأقصى انظرالناصـــري – المصدر السابق–ج3–ص 151 . للمزيد من التفصيل أنظر:عبدالهادى التازى–المغرب في خدمـــة التقارب الأفريقى العربى– ندوة العلاقة بين الثقافة العربية والثقافة الفريقية – تونس المنظمة العربيـــة للتربية والثقافة والعلوم–1985م . ص 65 .

[2] – بوفيل – المرجع السابق – ص 57

[3] – الذهبى – المصدر السابق جـــ 1 – ص 37

ب / أثر موقع دولة الكانم في تطوير علاقاتها مع بلاد المغرب .

يلعب العامل الجغرافي دوراً ملموساً في توجيه الأحداث التاريخية خاصة فيما يتعلق بموضوع العلاقات بين الدول ، فتداخل الحدود بين هذه الدول سيؤثر على العلاقات بينها سلماً وحرباً ، كما أن عدم وجود مواقع طبيعية يصعب اختراقها يسهم بالتأكيد في تطوير العلاقات بين هذه الدول ، ولو طبقنا هذا على موضوع العلاقات بين دولة الكانم والبرنو وبلاد المغرب لوجدنا أن العامل الجغرافي قد اسهم بشكل إيجابي في تطوير العلاقات بين الطرفين وقد رأينا عند حديثنا في الفصل الأول عن موقع دولة الكانم والبرنو أنها تتاخم بلاد المغرب من الناحية الجنوبية ، وتتداخل حدودها مع منطقة الشمال الأفريقي حيث يذكر البكرى أن كانم امتدت وراء صحراء زويله[1] ، كما ذكر أيضاً أن صحارى ليبيا تمتد إلى بلاد السودان [2]ويؤكد الحموي هذا التداخل في الحدود في حديثه عن زويله التي يعدها {أول بلاد السودان } [3]

إن هذا التداخل في الحدود بين دولة الكانم والبرنو وبلاد المغرب يحتم وجود علاقات سياسية بين الطرفين بحكم الاحتكاك السلمي المتمثل في الهجرة والتجارة أو الاحتكاك الحربي المتمثل في محاولات بعض مايات الكانم والبرنو السيطرة على إقليم فزان لضمان السيطرة على الطرق التجارية التي تعد من أهم الموارد الاقتصادية لدولة الكانم والبرنو[4] ، ومن جهة أخرى فإن هناك عاملا أخر مهماً اسهم في تطوير العلاقات بين الطرفين وهو خلو المنطقة الفاصلة بين دولة الكانم والبرنو وبلاد المغرب من العوائق الطبيعية التي تعرقل الصلات السياسية والاقتصادية فرغم وجود جبال تيبستى جنوب الصحراء الليبية إلا أن

---

[1] – البكري – المصدر السابق – ص 11 .

[2] – الوزان – مصدر سابق – ج1–ص 72 .

[3] – الحموى – مصدر سابق – جـ 3 – ص 160 .

[4] –فضل كلود – المرجع السابق – ص 104 .

{ هناك ممرات كثيرة واسعة مستوية فيها }[5]، بمعنى أن منطقة بحيرة تشاد{تتميز بخلوها من المظاهر التي يمكن أن تقوم كحدود طبيعية لها}[1] مما جعل المنطقة امتداداً طبيعياً لبلاد المغرب[2] ، وحتم وجود علاقات بين الطرفين كما أن هنـــاك دافعاً أخر له علاقة بالموقع أدى إلى حتمية العلاقات بين المنطقتين وهو المصلحة المشتركة للطرفين[3] ،فموقع الكانم والبرنو وكذلك دول بلاد المغرب ساعد علـــى إقامة علاقات سياسية طيبة لضمان استمرار العلاقة الاقتصادية فمثل ما كانت بلاد الكانم والبرنو منفذاً إلى أفريقيا فإن المناطق الساحلية من بلاد المغرب كانت المنفذ الوحيد لتصريف تجارة وسط أفريقيا إلى العالم .

جـ/ دور العناصر المغربية في الحياة السياسية في الكانم والبرنو

دور العناصر المغربية في تأسيس دولة الكانم : -

لم يقتصر دور العناصر المغربية على توطيد العلاقات السياسية بين بـــلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو بل كان دور هذه العناصر بارزاً منذ تأسيس الدولة، فقد رأينا في الفصل الأول أن منطقة بحيرة تشاد كانت خليطاً يتكون من عدة قبائل أشهرها قبيلة الزغاوة التي ترجع على رأى بعض المؤرخين إلى أصول شـــمالية حيث يرى المسعودى والبكري واليعقوبى[4] أنهم ينتمون إلى أصول حامية عبرت

---

[5] – الوزان – مصدر سابق – ج1–ص 72

[1] – بوفيل – المرجع السابق – ص 364

[2] – لعل مايؤكد هذا التداخل بين حدود المنطقتين ماذكره ابن أبى دينار في حديثه عن حـــدود بـــلاد المغرب حيث قال " { وحد أفريقيا بالطول من برقة إلى طنجة ، وعرضها من البحر الـــشامى إلـــى الرمال التي أول بلاد السودان } فإبن أبى دينار قد حدد الحدود الشمالية والغربية والشرقية بدقة ، أما حدود المغرب الجنوبية فجعلها الرمال التي أول بلاد السودان وهو دليل على تداخل المساحات بـــين بلاد المغرب والسودان وعدم وجود موانع طبيعية كالجبال أو الأنهار أو البحار تفصل بين المنطقتين " أنظر أبن أبى دينار – المصدر السابق ص 30 .

[3] – ابراهيم حركات – دور الصحراء الأفريقية في التبادل والتسويق خلال العصر الوسيط – مجلة البحوث التاريخية – طرابلس – مركز دراسات جهاد الليبيين – العـــدد الأول – ينـــاير 1981 م – ص 29 .

[4] – المسعودى – المصدر السابق – جـــ 2 – ص 114 – البكري – المصدر السابق– ص 320 – اليعقوبى – تاريخ اليعقوبي– جـــ 1 – ص 191 .

وادي النيل واستقرت ببلاد المغرب ثم اتجهت جنوباً حيث استقرت حول بحيرة تشاد ، ويؤيد هذا الرأي ماذكره الحموى من أن الزغاوة قبيلة من السودان جنوب تونس[1] وكذلك ماذكره حسين مؤنس من أن قبيلة الزغاوة كانت تسكن منطقة الجريد جنوب تونس ، ثم انتقلت إلى طرابلس ، ومنها انتقلت إلى إقليم كاوار ثم اتجهت جنوباً حيث استقرت في المنطقة الواقعة بين بحيرة تشاد وإقليم دارفور[2]، ومن جهة أخرى فإن تشابه أنماط الحياة بين الزغاوة وبين القبائل المغربية ،يؤكد أصولها الشمالية ، حيث يصفهم الأدريسى بأنهم { قوم رحل ضواغن والإبل عندهم كثيرة اللقاح حسنة الإنتاج وهم ينسجون الملابس من أوبارها والبيوت التي يعمرونها ويأوون إليها }[3] ، كذلك فإن التأثيرات المغربية تبدو واضحة في أصول بقية القبائل التي سكنت المنطقة فالكانمبو تمثل خليطاً من قبائل الصو والبربر[4] ، كذلك هناك تأثيرات بربرية على قبائل الكانورى[5] أما قبائل البولالا فيرى البعض أنهم يرجعون إلى أصول عربية وقد قدموا من الشرق[6] بينما يرى البعض الآخر أنهم ينحدرون من أصول بربرية وقد قدموا من الشمال[7] وفي كلا الحالتين فإن هذه القبائل ترجع إلى أصول عربية أو بربرية

إن مادفعنا إلى هذا الاستعراض الموجز لأصول القبائل التي سكنت منطقة بحيرة تشاد هو التأكيد على التأثيرات المغربية على التكوين السكاني لقبائل منطقة بحيرة تشاد[8] ودور هذا التأثير على العلاقات السياسية بين دولة الكانم وبلاد المغرب ، فهذه القبائل لاشك أنها لعبت دوراً مميزاً في توطيد العلاقات السياسية

---

(1) – الحموى – المصدر السابق – جـ 3 – ص 142 .

(2) – حسين مؤنس – تاريخ المغرب وحضارته جـ 1 – ص 99 .

(3) – الأدريسى – المصدر السابق – جـ 1 – ص 111 .

(4) – طرخان – المرجع السابق – ص 24 .

(5) – دائرة المعارف الإسلامية جـ 7 – ص 117 .

(6) – الغنيمى – المرجع السابق – ص 19

(7) – فضل كلود – المرجع السابق – ص 69 .

(8) – لقد ذكر الأدريسى أن القبائل التي أستقرت حول بحيرة تشاد " قد تشبهوا بالزغاويين في جميع حالاتهم ، وصاروا جنساً من أجناسهم " الأدريسى – المصدر السابق – جـ 1 – ص 110 .

بين بلادهم الأصلية وبين مكان استقرارهم الجديد في منطقة بحيرة تشاد خاصة أن العرب{ أصبحوا مواطنين بهذه البلاد ممتزجين بالأفارقة }[1]، فلا شك أن لهذه القبائل وشائج قربى مع القبائل المستقرة في بلاد المغرب وهى بالتأكيد حريصة على تقوية هذه الوشائج بمعنى أن العامل الاجتماعي كان له دور في تقوية الروابط السياسية بين المنطقتين .

إن تأثير العناصر المغربية على الحياة السياسية في الكانم والبرنو لم يقتصر على التكوين السكاني للمنطقة بل أستمر دور هذه العناصر في الحياة السياسية بعد قيام الدولة حيث ذكر أن قبائل التيبو التي هاجرت من مناطق صحراء فزان وجبال تيبستى إلى منطقة بحيرة تشاد خلال القرنين الخامس والسادس الهجري " الحادي عشر – الثاني عشر الميلادي " قد دخل أفرادها في خدمة الحكومة[2] كما أنهم كونوا نسبة كبيرة من جيش الكانم والبرنو خلال القرن العاشر الهجري " السادس عشر الميلادي "[3].

أما القبائل العربية التي استقرت في منطقة بحيرة تشاد فقد أطلق عليها السكان الأصليون اسم" الشوا"[4] واحتفظت هذه القبائل باسمائها الأصلية وكان من أشهرها جدام وجهينة ولخم)[5] ، وقد مثل أفراد الشوا طبقة الفرسان في جيش دولة الكانم[6]،هذا عن تأثير العناصر المغربية على التكوين السكاني للكانم والبرنو أما ظهور الدولة فقد أسهمت فيه العناصر المغربية بشكل مباشر فقد رأينا في الفصل التمهيدي من هذا البحث أن الفضل في تأسيس هذه الدولة يرجع إلى الأسرة الماغومية ، وهى ترجع وفق أرجح الآراء إلى قبائل الطوارق فكلمة ماغومى تعنى " نبلاء الطوارق " والمعروف أن الطوارق فرع من قبائل صنهاجه التي

---

(1) – الوزان – المصدر السابق – ج1–ص 41 .

(2) – ابراهيم طرخان – المرجع السابق – ص 28

(3) – المرجع نفسه – ص 29

(4) – تعنى هذه الكلمة " الرعاة الرحل " بلغة الكانورى أنظر:

Palmer - the Bornu sahara . p - 148

(5) – اليعقوبى – البلدان – ص 100 .

(6) – طرخان – المرجع السابق – ص 32

ترفع نسبها إلى حمير باليمن[1] ،وقد ذكر بعض الباحثين أنهم جاءوا إلى شمال أفريقيا بعد خراب سد مأرب ، ويؤكد هذا ماتم اكتشافه من آثار اليمن حيث عثر في منطقة المكلا على نقوش مكتوبة بالحروف نفسها التي يكتب بها الطوارق[2] وكان الطوارق يتنقلون في الصحراء الكبرى ثم انتقل قسم منهم إلى منطقة بحيرة تشاد في بداية القرن الثالث الهجري " التاسع الميلادي " وهى الفترة المرجحة لقيام دولة الكانم مما يؤيد انتماء الأسرة الماغومية التي أسست الدولة إلى الطوارق ، ولا شك أن وجود الإسلام كعامل مشترك بين الطوارق وبين كثير من السكان المحليين كان له " أثر كبير في تطوير الأحداث في المنطقة ترتب عليه قيام نشاط توسعي نحو الجنوب لنشر الإسلام بين الزنوج[3] ويرى البعض أن هجرة الطوارق إلى منطقة بحيرة تشاد لم تكن شاملة إنما كانت على هيئة أرستقراطية حاكمة تملك مصادر القوة والنفوذ ، واستطاعت عن طريقها أن تخضع شعب الزغاوة لسلطانها[4] ، وسواء كانت الهجرة شاملة أم تقتصر على هيئة أرستقراطية فالمهم لدينا أن الأسرة التي أسست دولة الكانم والبرنو ترجع إلى أصول مغربية مما يؤكد دور العناصر المغربية في الحياة السياسية في المنطقة ،أما النسب السيفي الذي أدعى حكام الكانم والبرنو الانتماء إليه[5] فهو وإن لم تثبت صحته[6] إلا أنه يدل على شعور حكام هذه الدولة وحرصهم على الانتماء إلى أصول عربية[7] خاصة بعد أن اعتنق هؤلاء الحكام الإسلام واتصلوا بحكام البلاد الإسلامية عن طريق الحج ورأوا ماعليه البلاد الإسلامية من ازدهار حضاري فكان لزاماً عليهم أن يؤكدوا انتماءهم إلى هذا العالم الكبير ، ومن جهة أخرى فإن هذا النسب السيفي

---

(1) – ابن خلدون – المصدر السابق – جـ 6 – ص 110 – الاروانى – المصدر السابق– ص56

(2) – القشاط – المرجع السابق – ص 30 .

(3) – حسن عيسى عبد الظاهر – المرجع السابق – ص 59

(4) – حسن أحمد محمود – المرجع السابق – ص 199 .

(5) – القلقشندى – المصدر السابق – جـ 5 – ص 269 .

(6) – أرجع إلى الفصل التمهيدى ص 22

(7) – لقد حرص على هذا النسب أغلب حكام الممالك الإسلامية في بلاد السودان الغربى مثل مالى وغاته وصنغاى " أنظر الإدريسى – المصدر السابق – ص 23 . السعدى المصدر السابق ص 4 "

يؤكد ماذكرناه من انتماء هذه الأسرة للطوارق على اعتبار أن الأصـــول القديمـــة للطوارق ترجع إلى قبائل حمير باليمن .

بالإضافة إلى هذا الدور الجماعي الذي قامت به العناصر المغربيـــة فـــي تأسيس دولة الكانم والبرنو فإن هناك أفراداً لعبوا دوراً ملموساً في الحياة السياسية في الدولة ، ويأتي على رأس هؤلاء الفقيه محمد بن مانى الذي عاصر خمسة من حكام الكانم والبرنو وأسلموا على يديه وعلم كل واحد منهم عـــدداً مـــن الـــسور القرآنية[1] بداية من الماى بولو الذي كان يحكم حوالي " 411 هـــ / 1020 م " ونهاية بالماى أومى جلمى " 480 – 490 هـ / 1087 – 1097 م الذي أصدر محرماً يكرم فيه شيخه محمد بن مانى[2] على الرغم من عدم إفصاح المـــصادر عن شخصية هذا الداعية وغياب المعلومات التفصيلية عن أعماله إلا أن الواضـــح من خلال ما ورد في المحرم عن دوره الكبير في إقناع حكـــام الكـــانم والبرنـــو بالإسلام أن هذا الرجل يتمتع بشخصية قوية مؤثرة وثقافة عالية مما يجعلنا نرجح أن دور هذا الرجل لم يقتصر على الدعوة الدينية بل كان مستشاراً سياســـياً لمـــن عاصره من الحكام ولعب دوراً مميزاً في الحياة السياسية في دولة الكانم والبرنو ، ومما يؤكد هذا أن الحكام كانوا يعطونه العطايا والمنح مقابل هذا الـــدور الـــديني والسياسي[3] كذلك ذكر محرم آخر أن محمد بن مسبارمة بن عثمان الحميـــرى[4] قد استقر في كانم أيام الماى على جاجى {881 – 909 هـ / 1476 – 1503م } وأصبح وزيره ولازمه ليل نهار فعبارة { أصبح وزيره } تؤكد الـــدور الـــسياسي الذي لعبه هذا الرجل في بلاط الماى على .

---

(1)- Palmer - the Bornu sahara . p14

(2)-Palmer- Op - cit - p . 15

(3)-Palmer – Op - cit - p . 16

(4) – محمد بن مسبارمه : داعية إسلامي عاش في عهد الماى على غـــازى " 881 – 909 هـــ / 1476 – 1503 م " وكان الماى يحضر دروسه التي ركز فيها على محاربة العادات الـــسيئة فـــي مجتمع الكانم وكان له دور في توطيد المبادئ الإسلامية في تلك الدولة . " أبراهيم صالح بن يونس – المرجع السابق – ص 81 . أنظر أيضا " فضل كلود – المرجع السابق – ص 186 .

ولعل اعتناق مايات الكانم والبرنو للإسلام جعلهم في حاجة إلى هذا النوع من المستشارين الذين يفقهونهم في أمور دينهم ويساعدونهم في إدارة شئون المملكة[1]، كما أن حاجة هؤلاء المايات إلى توطيد علاقاتهم مع حكام بلاد المغرب بدافع الرابطة الدينية والمصلحة التجارية قد جعلهم يقربون إلى بلاطهم العناصر المغربية التي تميزت بالخبرة السياسية والقدرات الإدارية لذلك لا نستبعد وجود اسماء أخرى من المستشارين والوزراء من العناصر المغربية في بلاط حكام الكانم والبرنو لم تتطرق المصادر لذكرهم .

نخلص من هذا إلى أن العناصر المغربية قد لعبت دوراً ملحوظاً في الحياة السياسية في الكانم والبرنو سواء من حيث الأصول الشمالية للكثير من القبائل التي سكنت منطقة بحيرة تشاد[2] أومن حيث دور هذه العناصر في قيام دولة الكانم والبرنو، ثم استمرار هذا الدور عن طريق بعض الدعاة الذين تحولوا إلى مستشارين ووزراء في بلاط حكام الكانم واسهموا بالتالي في توطيد علاقات هؤلاء الحكام بحكام بلاد المغرب .

---

[1] - لعل مايدل على أهمية هؤلاء العلماء المستشارين وحاجة مايات الكانم لهم أنه عندما أنقطع مجئيهم للبلاد أرسل الماى كاداى سنة 843 هـ / 1439 م إلى علماء مدينة توات يحثهم فيها على زيارة بلاده ويتعهد بحمايتهم. أنظر (ابراهيم صالح – المرجع السابق – ص 256)– أنظر الملحق رقم 12.

[2] – المقصود بها قبائل الطوارق والتيبو والقبائل العربية التي أستقرت حول بحيرة تشاد وساهمت في تاسيس مملكة الكانم والبرنو– انظر اليعقوبي– ص 333

د – تأثر النظام الإداري في الكانم والبرنو ببلاد المغرب

لقد رأينا في الفصل التمهيدي من هذا البحث أن مجتمع الكانم والبرنو كان يمثل خليطاً من عدة قبائل حيث كانت (بلاد مقفرة واسعة شاقة وهم أجناس كثيرة) [1] ، ومن الطبيعي وفق هذه الوضعية غياب النظام الإداري[2] وبعد قيام دولة الكانم والبرنو عرفت البلاد نوعاً من التنظيم الإداري بحكم وجود سلطة مركزية في البلاد حيث تحول الماى أوم بن جيل (479 – 491 هـ / 1086 – 1097م) من مجرد (فوجو fugu) أى شيخ قبيلة إلى حاكم مما يوحى بوجود نقلة حضارية في مجال الحياة السياسية لبلاد الكانم ، ولا نرجح أن يكون النظام الإداري في البداية على درجة من التماسك والقوة ، بل كانت السلطة متركزة في يد الملك إلى درجة أضعفت التنظيم الإداري فقد كان ملك هذه البلاد (يعد سيدها ،ذا اليد المطلقة عليها وكأنه مالكها وليس حاكماً عليها ، فهو المتصرف في رعاياه وعلى أنعامهم، من ماشية وخيل وأغنام برضا كامل منهم مستسلمين لقيادته[3] وكان نظام الحكم وراثياً حيث استمر في الأسرة الماغومية كما وجدت قاعدة ولاية الحكم لابن الأخت أو ابن البنت [4] .

لقد تأثر النظام الإداري في دولة الكانم والبرنو بعاملين رئيسين وهما دخول الحكام إلى الإسلام واتصال هؤلاء الحكام ببلاد المغرب، وقد تحدثنا في الفصل الأول عن انتشار الإسلام في أوساط الأسرة الحاكمة في القرن الخامس الهجري (أوائل القرن الحادي عشر الميلادي) وما أدى إليه من تقليص لسلطة الحكام وظهور بواكير النظام الإداري في هذه الدولة. وسنحاول هنا إبراز أثر اتصال حكام الكانم ببلاد المغرب على تطور النظام الإداري، أو بمعنى آخر دور العلاقات السياسية في تأثر النظام الإداري في الكانم والبرنو بالنظام الإداري ببلاد المغرب .

---

[1] – المقدسى – المصدر السابق – ص 231 .

[2] – لقد قال عنهم الدمشقى (أكثرهم متوحشون لايدينون بدين ، ولايكادون يفقهون قولاً وهم بالحيوان أشبه منهم بالناس) أنظر الدمشقى – المصدر السابق – ص 241 .

[3] –الحموى – المصدر السابق – جـ 3 – ص 142 .

[4] – فضل كلود – المرجع السابق – ص 210 .

إن أول ماتجدر ملاحظته في تأثر حكام الكانم بحكام بلاد المغرب هو الألقاب التي تطلق على الحكام فلو ألقينا نظرة على حكام بلاد المغرب خلال القرنيين " السابع الهجري " الثالث عشر الميلادي والثامن الهجري " الرابع عشر الميلادي لوجدنا حرص حكام تلك الدول إضفاء لقب خليفة أو أمير المؤمنين على أشخاصهم فبعد قيام الدولة الحفصية (وتأميل أهل الأفاق فيها ، وإمتداد الأيدى إليها بالطاعة)[1] أتخذ السلطان الحفصى المستنصر (647 – 676 هـ / 1249 – 1277 م) لقب أمير المؤمنين [2] خاصة بعد أن وصلته البيعة بالخلافة من مدينة مكة المكرمة [3] أما بالنسبة للمرينيين في المغرب الأقصى فقد كانت سلطتهم تتسم بحكم فردى وراثى وكان الأولون منهم يتسمون بأمراء المسلمين ، ثم نزع المتأخرون منهم إلى لقب أمير المؤمنين [4] وأول من تلقب بهذا اللقب منهم ابو الربيع سنة (708 هـ / 1308 م) وكذلك تلقب بهذا اللقب من بنى عبدالواد أبو تاشفين سنة (731 هـ / 1330 م) [5]

ومما يؤكد تأثر حكام الكانم بالمظاهر السياسية في بلاد المغرب أن حكام الكانم قد أطلقوا على أنفسهم لقب أمير المؤمنين ، وأول من اتخذ هذا اللقب من حكام الكانم هو دونمه دباليمى (618 – 658 هـ / 1221 – 1259 م) وسار على ذلك خلفاؤه من بعده [6] ومما يؤكد تأثر حكام الكانم ببلاد المغرب أن دونمه كان معاصراً للسلطان الحفصى المستنصر وقد ارتبط الاثنان بعلاقة وطيدة ، وبالإضافة إلى لقب أمير المؤمنين فقد عرف حكام الكانم والبرنو الكثير من

---

[1]- ابن خلدون – المصدر السابق – جـ 6 – ص 358

[2]- طرخان – المرجع السابق – ص 152 .

[3] – محمد بن أحمد بن الشماع – الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية – تحقيق الطاهر محمد المعموري – تونس– الدار العربية للكتاب – 1984م –ص67 ،انظر ايضاً محمد العروسى المطوى – السلطنة الحفصية – بيروت – دار الغرب الإسلامى 1986 – ص 192

[4] – ابن خلدون – المقدمة – ص 243 .

[5] – روباربرنشفيلك – تاريخ أفريقيا في العهد الحفصى – ترجمة حمادى الساحلى – بيروت – دار الغرب الإسلامى 1988 جـ 2 – ص 11 .

[6] – طرخان – المرجع السابق – ص 152 .

الألقاب التي كانت سائدة في العالم الإسلامي وأطلقوها على أنفسهم حيث جاء في رسالة الماى عثمان بن أدريس (795 – 829 هـ / 1392 – 1425 م) إلى السلطان برقوق في مصر عبارة : (من المتوكل على الله تعالى ، سيف الإسلام المستنصر بالله ، المنصور)[1] ، وقد انتشرت هذه الألقاب في المنطقة حيث حرص حكام دولة أولاد محمد [2] في فزان على إضفاء الألقاب الإسلامية على اسمائهم فنجد من ألقابهم : أمير المؤمنين ، المتوكل على الله في جميع أموره ، المكرم ، الاجل ، الأمجد ، الأسعد ، الباهر [3].

لم تكن الألقاب الإسلامية هي الوحيدة التي قلد فيها حكام الكانم والبرنو معاصريهم من بلاد المغرب بل نجد تشابهاً كبيراً بين الطرفين فيما يخص أوضاع هؤلاء الحكام وتقاليد الحكم فقد ذكر القلقشندى في حديثه عن بلاد الكانم أن ملكهم إذا ركب " تضرب أمامه الطنابير والطبول والأبواق) [4] ، ونجد نفس الظاهرة لدى السلاطين الحفصيين الذين كان يصاحبهم حملة البنود والطبول عند جولاتهم الرسمية [5] ، وعرف حكام الكانم والبرنو ظاهرة الاحتجاب عن الناس فقد كان لايكلمهم أحد إلا من وراء حجاب[6] ، وربما انتقلت هذه العادة من ملوك الحفصيين الذين استعملوا الحجاب أحياناً " لعزل الملك عن الجمهور أثناء المواكب

---

[1] –أنظر الملحق رقم (1)

[2]– دولة اولاد محمد : تنسب هذه الدولة إلى محمد الفاسي الذي قدم من المغرب في إحدى القوافل التجارية واستقر في فزان حيث استغل ظروف الفراغ السياسي الذي أعقب سقوط دولة بني خطاب ونجح في تكوين دولة في المنطقة سنة 957هـ –1550م واتخذ من مرزق عاصمة له وقد ازدهرت فزان في عهد هذه الدولة نتيجة لوقوعها في طريق القوافل التجارية بين وجنوب وشمال الصحراء زفي بداية العهد العثماني في ليبيا دخلت هذه الدولة في صراع مع العثمانيين حتى سقطت هذه الدولة سنة 1226هـ –1811 م في عهد يوسف القرهماني 1224 ، أنظر :حبيب وداعة الحسناوي – وثائق دولة أولاد محمد – طرابلس – مركز دراسات جهاد الليبيين – 1994م – ج1– ص 9 ، أنظر ايضا الحضري – المرجع السابق – ص 47

[3]- الحسناوي ، المرجع السابق ، ج1 ، ص 81

[4] – القلقشندي– المصدر نفسه – جـ 5 – ص 301

[5] – برنشفيلك – المرجع السابق – جـ 2 – ص 29 .

[6] – العمرى – المصدر السابق – جـ 2 – ص 95

المقامة في القصر[1] ، ويرى حكام الكانم أن احتجابهم عن رعيتهم أهيب لهم وأنفد لكلمتهم[2] ، ولكننا نرى أن الحجاب يقتصر على بعض المجالس ولم يكن بشكل دائم بدليل أننا رأينا الكثير من حكام الكانم والبرنو يخرجون بأنفسهم في حملات عسكرية لتأديب القبائل المعادية وتأمين الطرق التجارية أو لتوسيع حدود المملكة ولايمكن لهم أن يقوموا بهذه الجهود العسكرية في حالة احتجابهم الدائم عن رعيتهم بما فيهم قادة الجيوش .

أما مايخص المجالس التي تساعد الحاكم على شئون الحكم وصلاحياتها فنلاحظ تشابهاً ملموساً بين بلاط حكام الكانم والبرنو وبلاد المغرب وحيث إن دول المغرب قد سبقت قيام دولة الكانم زمنياً فالمرجح أن التأثير انتقل من الشمال إلى الجنوب أي من بلاد المغرب إلى دولة الكانم والبرنو فقد استعان السلاطين الحفصيون بمجلس للشورى يرجعون إليه فيما يخص أمور الدولة ، ونلاحظ نفس النظام في دولة الكانم والبرنو حيث كانت لهم مجالس للشورى ولم تكن مدة العضوية محددة بفترة زمنية معينة بل كان أعضاء المجلس يبقون في مناصبهم مدى الحياة بل ويتوارثون هذه العضوية[3] ، وكان من أبرز أعضاء هذا المجلس حكام الأقاليم الأربعة الرئيسة في الدولة وهى الإقليم الشمالي والإقليم الجنوبي والإقليم الغربي والإقليم الشرقي[4] بالإضافة إلى حاكم العاصمة وبقية كبار الضباط ورجال الحاشية ، ومما يؤكد تأثر حكام الكانم والبرنو بالدول الإسلامية المعاصرة لهم أنهم منحوا إقطاعيات لأعضاء مجلس الشورى بديلاً عن الرواتب المنتظمة ، وهو تقليد معروف في الدول الإسلامية منذ العصر العباسي ، وقد زادت ثروات

---

(1) – برنشفيلك – المرجع السابق – جـ 2 – ص 28 .

(2) – المرجع نفسه – جـ 2 – ص 81

(3) – طرخان – المرجع السابق – ص 154 .

(4) –دائرة المعارف الإسلامية – جـ 3 – ص 584 .

هؤلاء الأعضاء وزادت معها الخصومات والمنافسات الدموية مما أدى إلى حروب أهلية كانت من بين أسباب ضعف دولة الكانم والبرنو[1] .

لقد عرف بلاط حكام الكانم والبرنو وظيفة الوزير التي يرجح إنها انتقلت من دول المغرب وخاصة الدولة الحفصية التي استمر دور الوزير قائماً فيها طوال تاريخها[2]، وقد دل على وجود هذه الوظيفة في بلاط حكام الكانم بعض الإشارات التي وردت في المصادر ومنها ماذكره القلقشندى عن وجود الوزراء والقضاة والكتاب والدواوين بدولة الكانم والبرنو[3]، وكذلك ماورد في أحد المحارم من أن محمد بن مسبارمة بن عثمان الحميرى قد استقر في كانم أيام الماى على جاجى { 881 – 909 هـ / 1476 – 1503 م } وأصبح وزيره ولازمه ليل نهار[4] ، ويؤكد وجود منصب الوزير في بلاط حكام الكانم والبرنو ماذكره طرخان عن وجود موظف مسئول عن الشئون الخارجية وهو الوزير ولقبه دوجما Dugma [5] .

إن مايلفت النظر في التنظيم الإداري لدولة الكانم والبرنو هو نظام الأقاليم أو المقاطعات حيث كانت الدولة مقسمة إلى أثني عشر إقليماً يحكمها رؤساء محليون تحت إشراف ممثلى الماى[6] ويبدو التأثير المغربي واضحاً في هذا التنظيم الإداري فدول المغرب في ذلك الوقت كانت تعتمد على نظام الأقاليم الإدارية منذ فترة طويلة ويبدو أن هذا النظام قد انتقل إلى دولة الكانم والبرنو ، وقد رأينا في الفصل التمهيدي أن التكوين السكاني لبلاد الكانم يعتمد على النظام

---

[1] – عرف كل واحد من هؤلاء الأربع بلقب مميز حيث أطلق على حاكم الشمال " يريمة " ومعناها سيد الشمال وأطلق على حاكم الجنوب لقب " كيغاما " بمعنى سيد الجنوب بينما عرف حاكم الشرق بأسم " مسطرامة " وتعنى سيد مدينة ماسيو وهى مدينة تقع إلى الشرق من أنجيمى بينما عرف حاكم الغرب بلقب " غلديمة " وتعنى سيد الغرب { أنظر طرخان – المرجع السابق – ص 160 } .

[2] – طرخان– المرجع السابق – ص 156 .

[3] القلقشندى – المصدر السابق – جـ 5 – ص 2

[4] - palmer - The Bornu sahara - p 16

[5] – طرخان – المرجع السابق – ص 164

[6] – المرجع نفسه – ص 160

القبلي وليس من اليسير أن يتحول هذا التكوين القبلي إلى نظام الأقاليم أو المقاطعات التي تخضع للسلطة المركزية في العاصمة إلا أن قوة تأثير الإسلام من جهة وقوة التأثير الحضاري الوارد من بلاد المغرب من جهة أخرى كانا وراء هذا التغيير.

النظام العسكري : -

لقد كانت الخطوة الأولى التي رافقت قيام دولة الكانم والبرنو هي تنامي شعور الولاء للدولة ممثلة في سلطة الحاكم وحلول هذا الولاء محل الولاء القبلي الذي يشعر فيه المقاتل بالتزامه بالدفاع عن قبيلته، ولا يخضع لسلطة أعلى من سلطة شيخ القبيلة .

وقد سبقت بلاد المغرب دولة الكانم والبرنو في هذه الظاهرة بحكم ظهور الدول في فترة سبقت قيام دولة الكانم والبرنو مما يرجح وجود تأثير مغربي على دولة الكانم والبرنو خاصة إذا عرفنا أن الركب السلطاني الحفصى كان يضم مجموعة من العبيد السود" فوجود هذه المجموعة يوحى بالتأثير المتبادل بين بلاد المغرب وبلاد السودان، كذلك مما يؤكد وجود علاقات قوية بين الطرفين في المجال العسكري حرص حكام الكانم والبرنو على استيراد الأنواع الجيدة من الخيول من بلاد المغرب واعتمادهم عليها في القتال بدلاً من خيولهم التي يؤخذ عليها بطء حركتها وصغر حجمها، ولعل ما يدل على أهمية الخيل لدى حكام الكانم والبرنو أنهم كانوا يقايضون الحصان الجيد بما يساوي من 15إلى 20 عبداً [1] ، وقد اشتهر جيش كانم بقوة فرسانه حتى صار الفارس الكانمى مضرب المثل في شدة البأس وقوة الشكيمة ، كما اشتهر هذا الجيش بكثرة هؤلاء الفرسان حيث ورد في ديوان الكانم والبرنو أن سلاح الفرسان في جيش الماى دونمه دباليمى قد بلغت 100 ألف فارس[2] ، ومن جهة أخرى فإن أفراد القبائل العربية التي استقرت في

---

[1]- الوزان – المصدر السابق – ج2 – ص176 .

[2] – يميل الباحث إلى الاقتناع بوجود مبالغة في هذا العدد قياساً بعدد السكان ورغم عدم توفر إحصائية بعددهم إلا أننا نعتقد أن هذا العدد لم يصل إلى درجة وجود هذا العدد من الفرسان ،ومن جهة أخرى فلا يمكن الاقتناع بانتشار الخيل إلى الدرجة التي تجعل ثمنه في متناول الجميع= =

منطقة بحيرة تشاد وأطلق عليهم اسم الشوا قد شكلوا أغلبية فرسان جيش الكانم[1] مما يؤكد التأثير المغربي على دولة الكانم

كذلك اتبع حكام الكانم والبرنو نظام منح إقطاعيات لقادة الجيش بدلاً من مرتبات ثابتة[2] وقد عرف هذا النظام في الكثير من الدول الإسلامية منذ العصر العباسي كذلك من مظاهر التأثير المغربي على جيش الكانم أن جنوده كانوا يتلثمون [3] والمعروف أن اللثام يرتبط بقبائل الطوارق التي سكنت الصحراء الفاصلة بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو .

إن من أبرز مظاهر العلاقات العسكرية بين دولة الكانم والبرنو وبلاد المغرب حصول حكام الكانم على سلاح حديث في ذلك الوقت وهو سلاح البنادق التي جاءتهم من العثمانيين بعد استيلائهم على شمال إفريقيا[4] والمرجح هنا أن دخول سلاح البنادق إلى دولة الكانم جاء بعد تولى أدريس الوما الحكم سنة" 978 هـ / 1570 م " [5] ، أما ماذكر من أن الماى عثمان بن داوود " ت932 هـ/1525 م "

= = ومما يؤكد قلة الخيل في مملكة الكانم والبرنو أضطرار المايات إلى استيراد خيول من بلاد المغرب كما سنرى في فصل العلاقات الإقتصادية بين الطرفين ."محمد بن مسبارمة – المصدر السابق– ص 32

[1] – طرخان – المرجع السابق – ص 32 .

[2] – فضل كلود – المرجع السابق – ص 222 .

[3] – القلقشندى–المصدر السابق–ج5–ص271 ، العمرى – المصدر السابق – جـ 5 – ص 490 .

[4] - Palmer - The Bornu Sahara - p 15

[5] – يرى البعض أن مايات الكانم والبرنو قد تحصلوا على السلاح النارى من السعديين ، ويعتمد هذا الرأى على السفارة التي أرسلها أدريس الوما إلى المنصور السعدى سنة 995 هـ / 1588 م يطلب فيها تزويده بالأسلحة لمجاهدة القبائل الوثنية ، وحيث أن العثمانيين قد أستولوا على المغرب الأدنى سنة 1551 م فالباحث يرجح أن إدريس الوما قد يكون حصل على بعض البنادق ولكنها لم تفي بحاجته نظراً لضخامة جيشه فأتجه إلى المنصور على أمل تزويده بكمية كافية ولم تذكر لنا المصادر إن كان المنصور قد أرسل هذه الأسلحة وربما أرسل بعضها بدليل أن أدريس أرسل البيعة للمنصور بعد السفارة التي طلب فيها الأسلحة .

عندما زار بلاد الهوسا كان يحيط به طائفة من الحرس المسلحين بالبنادق[1] ، فليس هناك دليل قوي يعزز هذه المعلومة لأن العثمانيين الذين ارتبط مجيئهم إلى شمال أفريقيا بوصول السلاح الناري لم يكونوا قد ظهروا في المنطقة في تلك الفترة[2] ، وبهذا السلاح تميزت دولة الكانم عن بقية ممالك بلاد السودان المعاصرة لها ، ونجحت في فرض سيطرتها العسكرية على المنطقة وتوسيع حدودها في عهد الماى أدريس الوما .

من جهة أخرى هناك نقطة يجدر بنا الإشارة إليها ضمن العلاقات العسكرية بين بلاد المغرب ودولة الكانم والبرنو وهى الحملات التي كان يقودها بعض الحكام نحو مناطق كاوار وفزان، فالأحداث السياسية التي كانت تقع في منطقة فزان كانت تؤثر في علاقات حكام الكانم والبرنو بالشمال بحكم وقوع فزان في طريق القوافل التي تعد شريان الحياة الاقتصادية لدولة كانم لذلك لم يكن من المستغرب تدخل حكام الكانم عسكرياً في منطقة فزان كلما اضطربت الأحوال بما يشكل تهديداً للقوافل التجارية، (لأنه من غير التحكم في فزان لا يكون باستطاعة كانم أن تحتفظ بعلاقات تجارية ودبلوماسية مع تونس، وهي علاقات ذات أهمية كبيرة لها)[3] ،حيث بدأت هذه الحملات العسكرية في عهد الماى دونمه بن أوم " 492 – 542 هـ / 1098 – 1147 م " الذي أوصل حدود الدولة إلى منطقة فزان بعد سلسلة من الغارات الحربية [4]، ثم تواصلت محاولات مايات الكانم للسيطرة على إقليم فزان حتى جاء عهد دونمه دباليمى " 618 – 657 هـ / 1221 – 1258 م

---

[1] -طرخان – المصدر السابق – ص 168

[2] – لقد أستولى العثمانيون على ليبيا سنة "958هـ/ 1551م " كما أستولوا على تونس سنة " 982هـ/ 1574 م " والجزائر سنة "941هـ/ 1534 م " لمزيد من التفصيل انظر احمد النائب الانصاري– المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب – طرابلس – مكتبة الفرجاني – (د.ت) وانظر ايضا محمد ابن خليل ابن غلبون–التذكار في من ملك طرابلس وماكان بها من الاخيار – تحقيق الطاهر الزاوي– طرابلس – مكتبة النور– 1967م

[3] مادهو بانيكار – الوثنية والاسلام ، تاريخ الامبراطوريات الزنجية في غرب افريقيا – ترجمة أحمد فؤاد بلبع – القاهرة – المجلس الاعلى للثقافة – 1988–ص 182

[4] – دائرة المعارف الإسلامية – جـ 3 – ص 587

حيث قام هذا الماى بدور بارز في إقليم فزان الذي كانت تحكمه أسرة بنى خطاب [1] ،وقد قضى على حكم هذه الأسرة قراقوش [2]سنة 571هـ /1175م وبعد سقوط حكم هذه الاسرة دخلت منطقة فزان في فوضى سياسية نتيجة للصراع الحربي الذي دار بين قراقوش وبين يحيى بن غانيه وانتهى هذا الصراع بمقتل قراقوش وأحد أبنائه في ودان سنة 609هـ/1212م ، ويبدو ان حكام الكانم كانوا يتابعون أحداث هذا الصراع بإهتمام ، باعتبار أن أحداثه تقع على أرض تمر منها القوافل التجارية من الكانم إلى سواحل المغرب وبالعكس ، وقد وجد هؤلاء الحكام الفرصة المناسبة للتدخل في هذا الصراع عندما استنجد بهم أهالي فزان لتخليصهم من حكم ابن قراقوش الذي فر من بلاط الحفصية وحاول تأسيس إمارة مستقلة تكون عاصمتها ودان فسارع الماي دونمة دبالمي (618-656هـ/1221-1258م) إلى قيادة حملة عسكرية انتهت بانتصاره ومقتل ابن قراقوش في ودان سنة (656هـ/1258م) وبعد هذه الحملة دخلت منطقة فزان ضمن نفوذ الكانميين حيث عين دونمة نائباً عنه في حكم المنطقة واتخذ من مدينة تراغن مقراً لحكمه ، كذلك يبرز اسم الماى أدريس الوما " 978 – 1012 هـ / 1570 – 1603 م " كأحد المايات الذين قاموا بنشاط عسكري توسعي ناحية

---

[1] – أسرة بنى خطاب / تنتمى إلى عبدالله بن خطاب الهوارى الذي سكن مدينة زويلة سنة "306 هـ / 918 م " وأسس أولاده وأحفاده إمارة شملت زويله والمناطق القريبة منها وكان نظام الحكم بسيطاً يتكون من الحاكم ويساعده مجلس من الفقهاء يحكمون وفق المذهب الأباضى .وقد سقطت هذه الإمارة على يد قراقوش الذي لم يبقى في المنطقة طويلاً حيث أنهى حكمه الماى دونمه دباليمى " انظر أبوبكر عثمان الحضيرى – فزان ومراكزها الحضارية عبر التاريخ – سبها – مركز دراسات وأبحاث شئون الصحراء – " د . ت " ص 39 " .

[2]– قراقوش :- مغامر أرمني الأصل كان من رجال المظفر تقي الدين ابن أخ صلاح الدين وقد توجه إلى ليبيا حيث استولى على زويله بعد أن قضى على حكم بني الخطاب سنة(571هـ/1175م) ثم اتجه شمالاً فأستولى على طرابلس وكان يدعو لصلاح الدين الأيوبي ليضفي على نفسه طابع الشرعية كما استولى على قابس وقفصة مستغلاً ضعف دولة الموحدين إلا أن سيرة هذا الرجل واعتماده على النهب والسلب قد حرك ضده السكان واستطاع يحيى ابن غانيه بمساعدة العرب الهلالية أن ينتصر على قراقوش ويقتله في ودان سنة (609هـ/1212م) ، أنظر ابن غلبون – المصدر السابق – ص 68 ، الحضيري ، المرجع السابق – ص41

الشمال حيث اشتهر هذا السلطان بأنه سلطان قوى لايغلب[1]، قد نجح أدريس الوما بفضل براعته الحربية في إخضاع قبائل الطوارق والتيبو في الشمال واستغرقت حملاته على الشمال حوالي اثنتي عشرة سنة[2] ، ويمكن أن نستنتج من هذه الأحداث السياسية النقاط التالية :-

1- اهتمام حكام الكانم والبرنو بالأحداث السياسية التي تشهدها منطقة فزان بحكم مرور القوافل التجارية بهذه المنطقة وقد وصل هذا الاهتمام إلى درجة التدخل العسكري عندما تصبح الصراعات العسكرية في تلك المنطقة تهديداً مباشراً لطرق التجارة التي تمثل عصب الحياة الاقتصادية لدولة الكانم برنو

2- قوة العلاقات بين أهالي فزان وبين حكام الكانم برنو بدليل استنجاد أهل فزان بالماي دونمة دبالمي لتخليصهم من حكم ابن قراقوش ، كما تؤكد هذه الخطوة من جهة أخرى ثقة أهالي فزان بالقدرات العسكرية لحكام الكانم وقد أثبت نجاح حملة دونمة دبالمي صدق هذه الثقة .

3- رغبة الاطراف الواقعة جنوب وشمال الصحراء في إزالة أي عراقيل أمام حركة التجارة بين الطرفين فحملة دونمة دباليمي على فزان سنة(655هـ/1257م) جاءت بعد سنة واحدة من إرسال وفد إلى بلاط السلطان الحفصي المستنصر (647-676هـ/1249-1277) ، ورغم عدم وجود معلومات عن مباحثات هذا الوفد مع السلطان الحفصي إلا أن الباحث يرجح اتفاق الطرفين على إزالة التهديد الجديد للعلاقات التجارية بينهما والمتمثل في وجود ابن قراقوش في منطقة فزان ، أو بمعنى آخر بأن الحكام الحفصين قد أعطوا موافقتهم على تولي الكانميين مهمة إزالة هذا الخطر وقد تم هذا فعلاً بعد سنة واحدة من زيارة الوفد الكانمي للبلاط الحفصي .

بقيت نقطة أخيرة يجب أن نلاحظها وهي أن الحكم الكانمي لمنطقة فزان لم يستمر لمدة طويلة فحكام الكانم كان هدفهم من وراء الحملات العسكرية ينصب على حماية الطرق التجارية ولم يكن المقصود فيما نتصور ضم أراضي فزان لدولتهم

---

[1] - فضل كلود - المرجع السابق - ص 108

[2] - طرخان - المرجع السابق - ص 120

بشكل دائم ،ونحن هنا نتفق مع رأي الحسناوي [1] الـذي يبـدي عـدم اقتناعـه باستمرار خضوع فزان للسيطرة الكانمية لمدة طويلة ويذكر دليلاً مقنعاً لهذا الرأي يتمثل في أن كانم خلال الفترة التي عاش فيها ابو الفداء كانت تمر باضـطرابات سياسية خلال القرن الرابع عشر انتهت بانتقال الأسرة السيفية إلى غرب بحيـرة تشاد وبداية مرحلة البرنو ، لذلك لا نتوقع خـلال هـذه الـصراعات الداخليـة استمرار خضوع فزان لحكام الكانم ، ولعل ما يؤكد هذا الرأي ما ورد في دائـرة المعارف الإسلامية من أن دونمة (أجبر أهل فزان على الاعتراف بسلطانه) فهذه العبارة تؤكد بأن هدف حملات مايات الكانم على فزان يتمثل في الحفـاظ علـى الطرق التجارية [2].

يتبين لنا مما سبق أن دولة الكانم والبرنو قد استفادت من التنظيم العسكري لـدول بلاد المغرب ، وأن العلاقات العسكرية بين الطرفين ارتبطت بالعامل الاقتـصادي فأغلب الحملات العسكرية التي قادها مايات الكانم على منطقة فزان كانت بهـدف حماية طرق القوافل التجارية ونشر الأمن على الحدود الشمالية للدولة [3] ، ولـم تكن في الغالب بهدف توسيع الدولة بدليل أن هذه الحملات ترجع إلـى موطنهـا الأصلي بعد الانتهاء من مهمتها وهى توفير الأمن للقوافل التي تعد عصب الحيـاة الاقتصادية لدولة الكانم ،فالدافع الاقتصادي كان أحد أسباب وجود علاقات سياسية بين دولة الكانم والبرنو وبلاد المغرب[4] ، أما السبب الثـاني وراء وجـود هـذه العلاقات فهو اعتناق حكام الكانم والبرنو للإسلام وشعورهم بالحاجة إلـى إقامـة علاقات وثيقة مع إخوانهم في الدين من حكام بلاد المغرب خاصة بعـد أن اتجـه

---

[1]- حبيب وداعة الحسناوي – فزان تحت حكم اولاد محمد – دراسة سياسية ، اقتصادية ، إجتماعية، بمنظور تاريخي – رسالة ماجستير غير منشورة – ترجمة / محمد الشيخ اسحاق حسين – سبها – مركز البحوث والدراسات الافريقية – 1990– ص 553

[2]- دائرة المعارف الإسلامية – مادة برنو – ج7– ص 124

[3] –عبداللطيف البرغوثي – تاريخ ليبيا الإسلامي – بيروت – دار صادر – 1971م –ص446

[4] – لقد تحدثت المصادر القديمة عن الطرق التجارية التي تربط بلاد المغرب ببلاد الكانم مما يعزز فكرة وجود علاقات تجارية قوية بين الطرفين ساهمت في إقامة علاقات سياسية " أنظر : اليعقوبى – البلدان – ص 102 ، البكرى – المصدر السابق – ص 12 .

مايات الكانم والبرنو لأداء فريضة الحج[1] واختلطوا باخوانهم من الحكام المسلمين ولمسوا مدى التقدم الحضاري في الدول الإسلامية في شمال أفريقيا ، مما حفزهم لإقامة علاقات سياسية مع هذه الممالك للاستفادة من المظاهر الحضارية التي ميزت هذه الممالك .

هـ – السفارات والهدايا المتبادلة بين المغرب ودولة الكانم والبرنو

علاقات مملكة الكانم مع طرابلس :-

لقد كانت العلاقات بين طرابلس ومنطقة بحيرة تشاد قديمة بحكم موقع منطقة البحيرة المتاخم لطرابلس من الجهة الجنوبية ، حيث تحدث هيرودوت عن الشباب الخمسة الذين انطلقوا من مدينة سرت واتجهوا جنوبا بهدف استكشاف مناطق وسط أفريقيا[2] وفي العصر الروماني خرجت من طرابلس حملتان وصلت إحداهما إلى جبال تيبستي[3] كذلك رأينا في العهد الإسلامي كيف خرجت حملة عقبة بن نافع من إقليم طرابلس وسيطرت على كاوارعلى الحدود الشمالية لدولة الكانم والبرنو[4].

لقد ورد ذكر بعض السفارات بين مملكة الكانم والبرنو وبين طرابلس خاصة في أوائل القرن العاشر الهجري " السادس عشر الميلادي " مما يدل على قوة العلاقة بين الطرفين ولكن المصادر والمراجع لم تحدثنا بشئ من التفصيل عن هذه السفارات وكانت أول سفارة يبعث بها حكام الكانم إلى طرابلس سنة " 908 هـ / 1502 م" في عهد الماى أدريس بن على "908–933 هـ/1502 – 1526م"[5] ولو ألقينا نظرة على أحوال طرابلس في هذه الفترة لوجدنا إنها فترة غير مستقرة،

---

[1] – لقد أهتم مايات الكانم والبرنو بأداء فريضة الحج ولعل أبرز من أشتهر برحلات الحج من مايات الكانم والبرنو الماى دونمه بن أوم " 492 – 495 هـ / 1098 – 1101 م " الذي حج مرتين وأصطحب في المرة الثالثة 300 عبد ولكنه مات غرقاً في البحر – انظر ديوان الكانم برنو – ص 32 ، طرخان – المرجع السابق – ص 72 .

[2] – بوفيل – المرجع السابق – ص 47

[3] – أمين الطيبي – المرجع السابق – ص72

[4] – الذهبي – المصدر السابق – جـ 1 – ص37 ، البكري – المصدر السابق – ص13

[5] – طرخان – المرجع السابق – ص 174 .

فالسلطنة الحفصية في تونس رغم سيطرتها على طرابلس إلا أنها تعانى من الضعف بسبب ضغط الأتراك من جهة وضغط الأسبان والبرتغاليين من جهة أخرى[1] وحكمت طرابلس في هذه الفترة بعض الأسر المحلية أو بعض الشخصيات التي يثق في صلاحها السكان ، حيث كان حاكم المدينة في هذه الفترة يدعى أبوبكر بن عبدالله الذي وصف بأنه أحد الأعيان الزاهدين الناسكين[2] ، وغياب الاستقرار السياسي في طرابلس في تلك الفترة لاينفي وصول هذه السفارة فالعلاقات الاقتصادية الوثيقة بين الطرفين تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بصحة هذه السفارة رغم غياب التفاصيل ، وفي سنة " 918 هـ 1512 م "وصلت سفارة أخرى إلى طرابلس في عهد الماى أدريس بن على"908- 933 هـ/1502-1526م" ولم تحدثنا المصادر عن أى تفاصيل لهذه السفارة ، والملفت للنظر في تاريخ هذه السفارة أن طرابلس كانت تحت حكم الأسبان الذين احتلوها سنة " 916 هـ / 1510 م "[3]، والمرجح هنا أن هذه السفارة لم تدخل مدينة طرابلس بل وصلت إلى المناطق القريبة من طرابلس وربما تقصد هذه السفارة منطقة تاجوراء الواقعة إلى الشرق من طرابلس بعد أن تحولت الأنشطة التجارية إلى هذه المدينة التي أصبحت ملاذاً للسكان الفارين من منطقة الاحتلال الأسباني وبؤرة للمقاومة وقد بنينا هذا الترجيح على مايلى : -

1 - إن فترة السنتين فيما بين الاحتلال الأسباني وقدوم هذه السفارة لم تكن فترة كافية ليوطدوا حكمهم للمدينة فما زالت حركة المقاومة تعمل على استرجاع المدينة من الأسبان[4] الذين انهمكوا في إصلاح الأسوار وضمان الدفاع عن هذه المدينة

---

(1) - ابن غلبون- المصدر السابق-ص 102 أنظرأيضاً: حسين مؤنس - تاريخ المغرب وحضارته - جـ 2 - ص 282

(2) - اتورى روسى - ليبيا منذ الفتح العربى حتى سنة 1911 م - ترجمة خليفة التليسى - بيروت - دار الثقافة - 1974 م - ص 125 .

(3) - الأنصارى -المصدر السابق- ص 185 .

(4) -الأنصارى-المصدرالسابق-ص 111 أنظر أيضاً : اتورى روسى- المرجع السابق - ص 149

فلن نتوقع وسط هذه الظروف أن يفكر الأسبان في استقبال سفارة من الكانم والبرنو بهدف توطيد العلاقات بين الطرفين .

2- إن سقوط طرابلس في أيدي الأسبان بقدر ما أثار موجة من الفرح والرضا عمت أنحاء أوروبا أثارت هذه الخطوة موجة من السخط والغضب في أرجاء العالم الإسلامي[1] حيث اعتبروا أن سقوط طرابلس يعد بداية لحملة صليبية تستهدف الاستيلاء على شمال أفريقيا ، لذلك نستبعد وسط هذه الظروف أن يقدم حكام الكانم والبرنو الذين تربطهم رابطة الدين مع إخوانهم في طرابلس على إرسال سفارة للأسبان بهدف توطيد العلاقات ، ولو فرضنا جدلاً إرسال هذه السفارة فلا نتوقع وصولها بحكم مرورها في أراضى معادية للأسبان جنوب طرابلس .

لقد استمرت العلاقات السياسية بين دولة الكانم والبرنو وإقليم طرابلس حيث ذكرت المراجع مجئ سفارة من الماى محمد بن أدريس " 933 – 952 هـ / 1526 – 1545 " إلى طرابلس سنة "941 هـ/1534م "[2] وكانت طرابلس خلال الفترة تحت سيطرة فرسان القديس يوحنا[3] ، ونرجح هنا أيضاً أن هذه السفارة لم تتجاوز ضواحي المدينة لنفس الأسباب التي ذكرناها في السفارة السابقة فوجود جو عدائي بين سكان الدواخل وفرسان القديس يوحنا في طرابلس يجعل من المستحيل وصول سفارة من دولة الكانم إلى هؤلاء المحتلين خاصة وقد بدأت المناوشات بين العثمانيين والأوربيين في حوض البحر المتوسط حول مناطق

---

(1) – اتورى روسى– المرجع السابق – ص 147 .

(2) – طرخان – المرجع السابق – ص 174 .

(3) - فرسان القديس يوحنا –أبتدأت كمنظمة تقدم المساعدات الصحية خلال الحروب الصليبية ثم تحولت إلى منظمة عسكرية صليبية متعصبة وبعد طرد الصليبيين من فلسطين أستقرت هذه المنظمة في رودس ، ثم طردهم منها العثمانيون سنة 929 هـ / 1523 م ، ثم سلمهم الأسبان طرابلس سنة 942 هـ 1535 م ، وبقوا فيها حتى أخرجهم العثمانيون سنة 958 هـ / 1551 م . أنظر: ابن غلبون– المصدر السابق– ص110 –أنظر أيضاً : الطاهر الزاوى – تاريخ الفتح العربى لليبيا – طرابلس – دار الفرجانى – 1985 م – ص 378 .

النفوذ في شمال أفريقيا[1] ويؤكد هذا الترجيح ماذكره بعض الباحثين من أن الماي محمد ابن ادريس قد طلب خلال هذه السفارة التحالف مع خير الدين بربروس الذي وصل تاجوراء لتنظيم المقاومة ضد الفرسان في طرابلس ، ويأتي حرص محمد ابن ادريس على هذا التحالف على اعتبار أنه مسلم ويفضل التعامل مع حاكم مسلم بدلاً من فرسان القديس يوحنا[2].

نخلص مما سبق إلى أن العلاقات السياسية بين دول الكانم والبرنو وطرابلس لم تنقطع بحكم وجود علاقات تجارية بين الطرفين ولكن هذه العلاقات تحولت من الاتصال بحكام طرابلس مباشرة إلى الاتصال بشيوخ المناطق حول هذه المدينة بسبب سيطرة الأسبان ثم فرسان القديس يوحنا على طرابلس ، ولم تأخذ هذه العلاقات الطابع الرسمي مرة أخرى إلا بعد استيلاء العثمانيين على طرابلس 959 هـ / 1551 م ، حيث استمرت العلاقات السياسية بين مايات الكانم والبرنو والولاة العثمانيين في طرابلس فقد أرسل إدريس الوما (978 ـ 1012 هـ / 1570 – 1603 م) سفارة إلى استانبول في سنة 984هـ / 1576م طلبا للتفاهم مع السلطان مراد وقد رد السلطان مراد هذه السفارة بما يوحي بموافقته على توطيد العلاقات مع دولة الكانم[3]، كما أرسل ادريس ألوما بتأثير من والدته عائشة سفارة إلى طرابلس سنة (987 هـ / 1578 م)[4] بهدف الحصول على أسلحة نارية لجيشه ، ولضمان سلامة طرق القوافل بين الكانم والبرنو وطرابلس[5] إلا أن العلاقات بين أدريس الوما والعثمانيين أصيبت ببعض الفتور بسبب علاقة العثمانيين بسنغاى مما جعل أدريس الوما يتجه إلى المحور المعادى للعثمانيين وسنغاى وهو محور دولة السعديين في المغرب الأقصى .

---

[1] – ابن غلبون– المصدرالسابق– ص 103– أنظرأيضا:روسى–المرجع السابق– ص 164 – 165

[2]– الحسناوي – فزان تحت حكم اولاد محمد – ص 566

[3]- المرجع نفسه – ص 566

[4] - عبدالجليل التيميمى–العلاقة بين المغرب الأدنى والسودان الأوسط – ندوة العلاقة بين الثقافة العربية والأفريقية – تونس – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم 1985 م – ص 63 .

[5] – طرخان – المرجع السابق – ص 174

علاقة دولة الكانم بالسلطنة الحفصية في تونس :-

إذا كانت العلاقات السياسية بين دولة الكانم وطرابلس قد فرضتها طبيعة الموقع الجغرافي والمصالح الاقتصادية المتبادلة فإن علاقة الكانم بالدول الحفصية في تونس قد فرضتها بالإضافة إلى الموقع والمصالح الاقتصادية قوة وشهرة الدولة الحفصية كإحدى الدول التي ورثت الموحدين في منطقة المغرب الأدنى ولعل ما يدل على قوة وشهرة سلاطين هذه الدولة امتداد الأيدي إليها بالطاعة[1] حيث كان بنو مرين في بداية دعوتهم يدعون إلى أبى زكريا الحفصى (تأليفا لأهل المغرب،واستجلاباً لمرضاتهم) [2] ولم تقتصر هذه المكانة على شمال أفريقيا بل تجاوزتها إلى بلاد الشرق حيث وصلت بيعة أمراء مكة للسلطان الحفصى المستنصر الذي تلقب بلقب أمير المؤمنين [3] .

إذاً كان من الطبيعي أن يحرص حكام الكانم والبرنو على إقامة علاقات سياسية مع هذه الدولة الإسلامية المتاخمة لهم من الناحية الشمالية ، وكانت أول بادرة إيجابية في تاريخ العلاقات السياسية بين دولة الكانم والحفصيين هى ما ذكرناه من قيام الماى دونمه دباليمى (618 – 657 هـ / 1221 – 1258 م) بقيادة حملة على إقليم فزان تمكنت من القضاء على خطر ابن قراقوش[4] وقد تحسنت العلاقات السياسية بين الطرفين حيث ساعد الحفصيون بعض مايات الكانم في حروبهم الداخلية[5] أما بالنسبة للسفارات فقد أرسل دونمه دباليمى بسفارة إلى السلطان الحفصى المستنصر(647- 676 هـ / 1249 –1277 م) وكانت هذه السفارة سنة(655 هـ / 1257 م) وتضمنت بعض الهدايا ومن بينها زرافة (فكان لها بتونس مشهد عظيم برز إليها الجفلى من أهل البلد حتى غص بهم الفضاء ، وطال إعجابهم بشكل هذا الحيوان وتباين نعوته)[6]، ثم توالت السفارات

---

(1) – ابن خلدون – المصدر السابق – جـ 6 – ص 358

(2) - الناصرى – المصدر السابق – جـ 3 – ص 28

(3) – ابن الشماع – المصدر السابق – ص59

(4) – أمين الطيبى – المرجع السابق – ص 74

(5) – طرخان – المرجع السابق – ص 174 .

(6) – ابن خلدون – المصدر السابق – جـ 12 – ص 652 .

بين مايات الكانم والبرنو وسلاطين الدولة الحفصية حيث أرسل الماى عبدالله بن كاداى(721 – 743 هـ / 1321 – 1342 م) سفارة إلى البلاط الحفصى سنة (727 هـ / 1326 م)[1] كما أرسل الماى أدريس بن على (909 – 933 هـ / 1503 – 1526 م) سفارة أخرى سنة (909 هـ / 1503 م) ، واتبع هذه السفارة بأخرى في أخر سنة من حكمه

و – العلاقات بين المغرب الأقصى ودولة الكانم في عهد أدريس الوما .

(978 – 1012 هـ / 1570 – 1603 م)

يعد الماى أدريس الوما من أبرز مايات دولة الكانم والبرنو ، حيث اشتهر بقوة شخصيته وكثرة حملاته الحربية التوسعية بشكل لم يسبقه إليه أحد[2] وقد تعددت اتجاهات حملاته حيث اتجهت أحياناً نحو الشمال لتأديب القبائل التي تهدد طرق التجارة بينما اتجهت أحياناً نحو الجنوب لنشر الإسلام بين القبائل الوثنية كذلك أتجه أدريس الوما في بعض حملاته نحو الغرب حيث استولى على بعض إمارات الهوسا[3] لذلك رأينا أن نتحدث عن علاقة هذا الماى مع المغرب الأقصى كنموذج للعلاقات السياسية بين مايات الكانم والبرنو وبلاد المغرب .

لكى نفهم طبيعة وظروف العلاقات السياسية بين الماى أدريس الوما والسعديين في المغرب الأقصى لابد أن نتعرف على الأوضاع الدولية في منطقة شمال ووسط أفريقيا في تلك الفترة حتى ندرك طبيعة العلاقات التي ربطت بين الدول التي سيطرت على تلك المنطقة من حيث توافق أو تضارب مصالحها السياسية والاقتصادية .

لو ألقينا نظرة على الخارطة السياسية لمنطقة شمال ووسط أفريقيا خلال النصف الثاني من القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) لوجدنا أن هناك أربع دول تتنازع مناطق النفوذ في المنطقة وهى : –

---

[1] – عبدالجليل التميمى – المرجع السابق – ص 63

[2] – الناصرى – المصدر السابق– جـ 5 – ص 104

[3] – ابراهيم طرخان – المرجع السابق – ص 121

1 – **الدولة العثمانية** التي أصبحت تمثل القوة الإسلامية الوحيدة القادرة على التصدي للإطماع الأوربية في حوض البحر المتوسط حيث تمكن العثمانيون من السيطرة على سواحل المغرب الأوسط (الجزائر سنة 943 هـ / 1536 م)[1] كما نجح الأتراك في تخليص طرابلس من احتلال فرسان القديس يوحنا [2] استولوا أيضاً على تونس في أعقاب ضعف الدولة الحفصية[3] وأصبحت الدولة العثمانية تمثل قوة لها تأثير على مسار الأحداث في منطقة الشمال الأفريقي

2 – **دولة السعديين** في المغرب الأقصى(915 – 1069 هـ/1509– 1658 م) لقد ظهرت هذه الدولة في المغرب الأقصى في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) واستغلت ضعف دولة بنى وطاس وبدأت في التوسع على حسابها حيث استولى السعديون على مراكش سنة (930 هـ / 1523 م) كما استولوا على فاس سنة (956 هـ / 1549 م)[4]ونجح السعديون في المحافظة على استقلال ووحدة المغرب الأقصى فانتصروا على البرتغاليين في معركة وادي المخازن (986 هـ / 1578 م) ، كما نجحوا في صد الأطماع التركية التي حاولت ضم المغرب الأقصى بعد سيطرة الأتراك على الجزائر وتونس وليبيا

3 – **دولة الكانم والبرنو** : –

لقد شهدت هذه الدولة أزهى فتراتها في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري " السادس عشر الميلادي "[5] وكان من أبرز حكامها في هذه الفترة الماى أدريس الوما (978 – 1011 هـ / 1570 – 1603 م) الذي وسع حدود مملكته بواسطة سلسلة من الحملات العسكرية شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً[6] .

---

(1) – محمود السيد – تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها – الأسكندرية – مؤسسة شباب الجامعة – 1999 م – ص 105 .

(2) – روسى – المرجع السابق – ص 176 .

(3) – حسين مؤنس – تاريخ المغرب وحضارته – جـ 1 – ص 284

(4) – ابراهيم حركات – المرجع السابق –ص 246 .

(5) – حسن أحمد محمود – المرجع السابق – ص 200 .

(6) – طرخان – المرجع السابق – ص 120 .

4 – **دولة سنغاى : –**

لقد بدأت هذه الدولة بداية لاتلفت الأنظار حيث تأسس كيان صغير على ضفة نهر النيجر ، ثم أتسع هذا الكيان على حساب دولة مالى التي بدأت تضعف حتى أصبح دولة كبيرة ومن أبرز ملوكها سنى على (869 – 898 هـ / 1464 – 1492 م) الذي كان له الفضل في تكوين إمبراطورية واسعة [1] .ثم انتقل الحكم إلى أحد ضباطه وهو أسكيا محمد (899 – 936 هـ / 1493 – 1529 م) الذي نظم شئون البلاد الإدارية واهتم بالذهاب إلى الحج وكان موكبه شبيهاً بمواكب منسى موسى سلطان مالى[2] ثم بدأت هذه الدولة تنحدر نحو الضعف تدريجياً لتنافس أبناء الأسرة الحاكمة على الحكم[3] وأصبحت البلاد مهيأة للغزو الخارجي الذي جاء من الشمال أي من المغرب الأقصى سنة 999 هـ / 1590 م

- **أثر الأوضاع الدولية على علاقة أدريس الوما بالمنصور**

لقد أسهمت الأوضاع الدولية والصراع على مناطق النفوذ في توطيد العلاقات بين دولة الكانم والبرنو والمغرب الأقصى في عهد السعديين فالعلاقة كانت عدائية بين دولة الكانم والبرنو وسنغاى[4] بسبب طمع كل من الدولتين في ضم الإمارات الصغيرة في بلاد الهوسا لما تحفل به من ثروات زراعية وحيوانية [5]، وقد زاد من توتر العلاقات بين الطرفين حرص سنغاى على الاستفادة من الوجود العثماني في المنطقة حيث حرص سلاطين سنغاى على التقرب من هذه القوة الفتية التي سيطرت على شمال أفريقيا ، ومما يدل على وجود هذه العلاقة ما ذكره القلقشندى من أن الأتراك الذين استقدموا من مصر كانوا يقومون على حراسة سلاطين

---

[1] – السعدى – المصدر السابق – ص 6 .

[2] – السعدى – المصدر السابق – ص 8

[3] – مجموعة من الباحثين – تاريخ أفريقيا – القاهرة – معهد البحوث والدراسات الأفريقية – 1997 م – ص 185 .

[4] – طرخان – المرجع السابق – ص 175 .

[5] – عبدالكريم كريم – المغرب في عهد الدولة السعدية – الدار البيضاء – شركة الطبع والنشر – 1977 م – ص 147 .

سنغاى[1] بل أن بعض المراجع تتحدث عن اتفاقية حلف بين سنغاى وتركيا أثناء وجود بعثة باستانبول حوالي سنة 988 هـ 1580 م أيام الأسكى داود[2] وأمام هذه المحاولات التي يهدف بها سلاطين سنغاى إلى التقرب من تركيا أقدم أدريس الوما على خطوة سياسية ليقطع الطريق أمام محاولات سنغاى إقامة تحالف مع الأتراك حيث أرسل بعثة سنة 984 هـ / 1576 م إلى استانبول قابلت السلطان مراد الثالث بهدف توثيق العلاقات السياسية بين البلدين .

لقد أرسل السلطان مراد برسالتين إلى أدريس الوما ولعل ابرز ما نفهمه من خلال الإطلاع على هاتين الرسالتين هو أن السلطان العثماني قد طلب من أدريس الوما مبايعته والانطواء ولو بشكل رسمي تحت الدولة العثمانية كشرط لتحسين العلاقات بين الطرفين ويبدو هذا واضحاً في صيغة الأمر في الرسالة الأولى بقوله :(فالواجب عليكم عند وصول كتابنا الشريف أن تستمروا على ضبط الممالك التي كانت تحت حكومتكم وحفظ الحدود وحراسة الدور الكائنة في حيز ولايتكم)[3] ويبدو هذا الطلب واضحاً في الرسالة الثانية إذ يقول : (ولايخفي عليكم أن الله تبارك وتعالى شأنه علواً كبيراً كما أتانا من لدنه سلطاناً نصيرا فلمح إلى مبايعتنا بالسلطة الزاهرة ومتابعتنا بالخلافة الباهرة)[4]، ثم يشترط لإجابة طلبات البعثة تبعية أدريس للخلافة إذ يقول: (فإن كنتم من الاختصاص بمقامنا العالي دائماً وعلى قدم الإخلاص قائماً تلقينا بقبول كل ما ذكر)[5] ، وربما كانت هذه الرغبة من السلطان العثماني أحد أسباب اتجاه أدريس الوما إلى الجانب المعارض للعثمانيين في المنطقة وهم السعديون[6] ، وربما كان انحياز الأتراك لمناصرة سنغاي هو الذي كان وراء تقاعسهم عن الاستجابة لعروض مملكة

---

(1) – القلقشندى – المصدر السابق – جـ 5 – ص 282 .

(2) – عبدالوهاب التازى – المرجع السابق – ص 106

(3) – عبد الوهاب النازي – المرجع السابق –ص 108 .

(4) – المرجع نفسه 108 .

(5) - المرجع نفسه 108 .

(6) – الناصري – المصدر السابق– ج 5 ص105

برنو ، أما ماذكر من أن أدريس الوما قد حصل على بعض الأسلحة النارية لجيشه، فالمرجح أنه حصل عليها ضمن عملية تجارية لا علاقة لها بالعلاقات السياسية وذلك بمبادلتها بالعاج وريش النعام وجلود النمور والتماسيح[1].

إذاً وأمام هذه الظروف وجد أدريس الوما نفسه مضطراً للاتجاه نحو الدولة السعدية التي تناصب كل من العثمانيين ودولة سنغاى العداء ، بمعنى أن الأوضاع الدولية في المنطقة أسفرت عن قيام حلف يضم دولة كانم والدولة السعدية في مقابل الحلف الآخر الذي يضم العثمانيين ودولة سنغاى ، وقد بدأت الاتصالات السياسية بين أدريس الوما والسعديين سنة (990 هـ / 1582 م) عندما أرسل أدريس سفارة إلى المنصور صحبة بعض الهدايا ، وحملت هذه السفارة رسالة من أدريس يطلب فيها من المنصور تزويده بالأسلحة النارية لغرض مجاهدة القبائل الوثنية[2]ولعل هذا الطلب يؤكد لنا فشل مساعي أدريس في الحصول على حاجته من الأسلحة النارية من العثمانيين ــ ثم ترددت السفارات بين الطرفين حيث جاءت السفارة الثانية بناء على رغبة المنصور في الحصول على البيعة من أدريس .

أما السفارة الثالثة فجاءت لتعلن موافقة أدريس على مبايعة السلطان السعدي[3] والذي يلفت النظر في هذه البيعة المبالغة في مدح المنصور وبيان نسبه الذي أهله لتولى الخلافة ، وكذلك القسم الذي جاء في نهاية البيعة بعبارات قوية منتقاة [4] ولعل صيغة البيعة من أدريس الوما إلى المنصور توحي بحاجة أدريس أمام الظروف الدولية التي ذكرناها لوجود حليف قوى مثل المنصور . لقد عرفنا فيما سبق أن أدريس الوما كانت له مصلحة في تقوية علاقاته بالمغرب الأقصى وتتمثل في عدائه المستحكم مع دولة سنغاى مما جعله يبحث عن حليف معاد لهذه

---

(1) – فضل كلود – المرجع السابق – ص 108 ، محمد الغربى – المرجع السابق – ص 154

(2) – القشتالى – المصدر السابق – ص 67

(3) – الناصري – المصدر السابق – ج5–ص106–انظر ايضا:محمد الغربى – المرجع السابق – ص 155

(4) – أنظر نص البيعة في الملحق رقم (2)

الدولة بالإضافة إلى خوفه من خطر العثمانيين الـذين تمركـزوا فـي الـسواحل الشمالية لذلك رأى ادريس الوما أن بيعته للسعديين لاتتجـاوز الإطـار الـشكلي لاستبعاد نية السعديين في غزو دولته ,أما بيعته للعثمانيين فربما تعنى فتح الطريق أمام الجيوش العثمانية للوصول إلى دولة الكانم بعد السيطرة على سواحل الـشمال الأفريقي .

أما مصلحة المنصور من هذه العلاقات المتميزة مع دولة الكانم والبرنـو فيمكن فهمها من خلال الظروف الدولية التي كانت تحيط بدولـة الـسعديين فـي المغرب الأقصى ، وتتمثل هذه الظروف في محاولات العثمانيين إكمال سـيطرتهم على المغرب الأقصى بعد أن استولوا على الجزائر وتونس وليبيا ، وقد واجهـتهم في المغرب الأقصى دولة قوية مصممة على الاحتفاظ باستقلالها ومن هنا بـدأت المناوشات العسكرية بين الطرفين ففي سنة 958 هـ / 1551 م دخلـت قـوات السعديين تلمسان بعد قتال مرير[1] ، وبعد أربع سنوات أكتسح العثمانيون المغرب ودخلوا مدينة فاس سنة 962 هـ / 1554 م إلا أن السعديين تمكنوا من إخـراج العثمانيين من المدينة [2]، وهكذا استمرت العلاقات بين الطرفين تأخذ شكلاً عدائياً وكانت الجهود البرتغالية والأسبانية في مجال العمل السياسي تعمل علـى تقويـة الخلاف بين الطرفين خدمة لمصالحها الخاصة ، كما أن العلاقات المميـزة بـين الأتراك ودولة سنغاى المتاخمة للمغرب من الجنوب كانت مؤشـر خطـر يهـدد الملوك السعديين ،وكانت أحد أسباب الغزو المغربي لسنغاى في عهد المنـصور ، إذاً فالمنصور وجد نفسه في مواجهة عدو من الجهة الشرقية وعدو مـن الجهـة الجنوبية فلم يكن أمامه إلا التحالف مع دولة الكانم والبرنو لكسر هذا الطوق وقـد حقق المنصور بواسطة هذا التحالف عدة أهداف منها : -

1 – ضمان حياد دولة الكانم في الصراع الدائر بين المغرب وسنغاى ، حيث كان المنصور في ذلك الوقت يستعد للقيام بحملة عسكرية على سنغاى ، ولم يكن مـن

---

[1] – الناصري – المصدر السابق – ج5–ص 25–

[2] – المصدر نفسه – ج5– ص 28.

المستبعد لو كانت العلاقات حسنة بين الكانم وسنغاى أن يتحالف الطرفان ضد المغرب [1]

2 – تطويق الأتراك من الجنوب فمن المعروف أن دولة الكانم تتاخم الممتلكات العثمانية في شمال أفريقيا من الجنوب وربما أراد المنصور بفتح هذه الجبهة التخفيف من ضغط العثمانيين على حدود دولته الشرقية.

3 – هناك أيضاً هدف اقتصادي من وراء هذا التحالف وهو السيطرة على طرق التجارة بين الشمال والجنوب فدولة الكانم تعد المنفذ الوحيد الرابط بين أواسط أفريقيا والمناطق الساحلية باعتبار أن الطرق تمثل شرايين الحياة الاقتصادية لمدن ساحل المغرب الأدنى.

4- حصول المنصور على نصر معنوي وذلك بوصول اسمه كأمير للمؤمنين إلى مناطق بعيدة عن المغرب فمبايعة أدريس الوما للمنصور بالخلافة زادت من مكانة وهيبة المنصور لدى الأفارقة وأعطته بعض المبررات المعنوية لغزو سنغاى التي لم تعترف له بهذا المنصب بل نجد أن سلاطين سنغاى قد عملوا على الحصول على هذا اللقب ، فعندما حج الأسكى محمد سنة 903 هـ / 1497 م حرص على مقابلة المتوكل الثاني آخر سلالة العباسيين وحصل منه على تقليد الخلافة[2] ،وربما كان هدفه من هذه الخطوة إضعاف المركز الديني لسلاطين المغرب الذين يرون أن حق الخلافة لهم وحدهم في تلك المنطقة بمعنى أن هذا المنصب المعنوي أصبح موضوع تنافس بين حكام المنطقة .

هذه هي الأهداف التي كان يأمل السعديون في الحصول عليها نتيجة لتحالفهم مع دولة الكانم والبرنو ، أما ماذكره بعض الباحثين[3] من أن أحد الأهداف هو التعاون المشترك بين المملكتين للاستيلاء باسم الجهاد على إقليم دارفور المتاخم لدولة الكانم من جهة الشرق فلا نعتقد أن السعديين أمام الظروف الدولية المحيطة بهم سيفكرون في غزو ذلك الإقليم الذي يبعد عن بلادهم آلاف الأميال بل كان همهم

---

[1] – محمد الغربى – المرجع السابق – ص 157 .

[2] – عبدالهادى التازى – المرجع السابق – ص 106 .

[3] – محمد الغربى – المرجع السابق – ص 157

منصباً على التصدى للأتراك من الشرق والأسبان والبرتغاليون من الشمال ودولة سنغاى من الجنوب ولم يكن حلفهم مع الكانم إلا كخطوة أولى لكسر هذا الحصار ثم جاءت الخطوة الثانية المتمثلة في الغزو المغربي لدولة سنغاى 999هـ / 1590 م .